الفصل الثاني

الأديب

obeikandl.com

obeikandl.com

توطئة

يمكن القول إن أنور الجندي كتب في معظم الأشكال الأدبية، وكتب عنها جميعًا.

فقد كتب القصة الطويلة أو الرواية، وسبقت الإشارة إلى أنه أصدر رواية بعنوان (بلا أمل) حدثني عنها ولكني لم أطلع عليها، وقد فهمت منه أنها كانت بنت زمانها تحمل روح الرومانتيكية والثورة على الواقع، بيد أنه فيما أعلم لم يكتب غيرها، خاصة بعد انتقاله إلى الصحافة، فقد انصرف إلى الكتابة المباشرة في الأدب والفكر والثقافة بصفة عامة.

وكانت المقالة بحكم عمله الصحفي هي ركيزة أعماله، فالصحافة تتطلب عملًا يوميًّا أو أسبوعيًّا أو شهريًّا، وقد كانت في بعض الأحوال أساسًا لبعض كتبه؛ حيث كان يجمع بعض مقالاته المتشابهة أو ذات الموضوع المشترك ويصدرها في كتاب واحد له منهج متقارب.

وبصفة عامة فقد كانت مقالاته عنصرًا مشتركًا في كثير من الصحف والدوريات العربية، أدبية وإسلامية وثقافية عامة؛ حيث كان يزود هذه الصحف وتلك الدوريات بما تطلبه من مقالات بصورة منتظمة، أو في المناسبات المختلفة.

وكانت المناسبات الإسلامية وخاصة شهر رمضان؛ فرصة ليكتب سلسلة من المقالات في فكرة واحدة أو قضية واحدة، ثم يجمعها بعد ذلك في كتاب يحمل كل منها عنوانًا واحدًا.

ثم إنه بحكم عمله الصحفي كان يجري حوارات أدبية وفكرية عالية المستوى مع رموز الأدب والفكر في مصر والعالم العربي، وكانت بعض حواراته تثير اهتمام الكتاب والأدباء والمفكرين في أرجاء العالم العربي، مثل حواره مع الراحل الدكتور محمد محمد حسين- رحمه الله- ونشرته مجلة الأمة القطرية المحتجبة في عددها الصادر في رجب ١٤٠٣هـ، أبريل ١٩٨٣م، وسنعرض له إن شاء الله بوصفه نموذجًا للحوار الأدبي الفكري الراقي.

وكان تركيزه على معالجة القضايا الكبرى في كتب ممتدة، يشكل بعضها موسوعات متعددة الأجزاء، غزيرة الصفحات كما نرى مثلًا في موسوعته عن الصحافة الإسلامية التي تناولت مجموعة من الصحف الإسلامية في النصف الأول من القرن العشرين.

وإلى جانب الموسوعات الضخمة، فهناك موسوعات موجزة أو محدودة الصفحات مثل معلمة الإسلام أو دائرة الضوء أو على طريق الأصالة، وهي عبارة عن كتيبات صغيرة الحجم تقدم المادة العلمية حول فكرة معينة أو مصطلح معين؛ في إطار موجز وصفحات قليلة.

وفي هذا الفصل نتناول:

أولًا: الفنون الأدبية:

١ - المقال. ٢ - الحوار. ٣ - البحث.

ثانيًا: قضايا أدبية وعامة:

١ - العقيدة والشريعة. ٢ - اللغة العربية. ٣ - الأدب والنقد.

٤ - الشعوبية في الأدب العربي الحديث.

***

أولًا: الفنون الأدبية

١ - المقال

عادة يكون المقال بحثًا مختصرًا لموضوع كبير، باستثناء المقالات القصيرة التي كانت تتناول موضوعات صحفية سريعة، ومعظمها كان عرضًا لكتب ترد إلى الصحيفة، فيعرف بها في مقالات موجزة.

أما مقالاته التي كان يكتبها خصيصًا لبعض المجلات الإسلامية أو الأدبية، فكان يحتشد لها ويركز فيها على مقدمة تبين المفهوم أو الفكرة التي يعالجها، ثم ينطلق في إسهاب لبيان ما يريد مستشهدًا بالنصوص ومقدمًا للأدلة التي تؤكد ما يذهب إليه، ويكون الختام متسقًا بطريقة ما مع المضمون ومتصلًا به.

الحداثة:

فعلى سبيل المثال نجده في مقاله «الحداثة» الذي نشرته مجلة (منار الإسلام) في ربيع الأول ١٤٠٦هـ، يبدأ مقاله بتقديم مفهوم الحداثة والظروف التي دخلت من خلالها إلى الأدب العربي، ثم يتناول واقعها في بلاد العرب، وأهم الدعاة لها، وطريقة تسللها إلى ثوابت الإسلام بحثًا عن تقويضه، وتشويهه، ويشير إلى ارتباطها لدى دعاتها بأفكار قديمة وحوادث جرت في التاريخ الإسلامي، كان هدفها ضرب الإسلام من داخله، ويظل يحلل أبعاد هذه الدعوة حتى يكشف فحواها الخبيث ومضمونها المدمر.

فالحداثة ليست دعوة مرحلية من دعوات التغريب في مجال الأدب، ولا تدخل في إطار المذاهب الأدبية الغربية التي نقلت إلى الأدب العربي، وإنما هي شيء أكبر من ذلك، إنها ثورة على الثوابت الإسلامية الأساسية تسللت إلى الفكر

العربي عن طريقٍ جانبي هو (الشعر) حتى لا تحدث ضجيجًا أو صياحًا يفسد عليها هدفها الذي تسير فيه ويمنعها أن تصـــل إلى غايتها الخطيرة؛ وهي محاربة القيم الإسلامية وإزاحة فكرة الأصول الثابتة، وتغليب طوابع التطور المطلق، والتغيير المتوالي الذي لا يعترف أساسًا بالضوابط والحدود. ويرمي إلى فتح الطريق أمام حرية الإباحية، وتمجيد العلاقة الجنسية، والجرأة على أعلى القيم التي جاءت بها الأديان، وذلك بتحطيم هذه الضوابط والحدود.

حركة الشعر:

ويوضح أنور الجندي ذلك بحركة الشعر الحر- أو شعر التفعيلة كما يسمى أحيانًا- فقد كانت منذ ظهورها مقدمة ومدخلًا للحداثة أو هذا العمل الخطير كما يسميه، وقد قام على رأس هذه المؤامرة في بدايتها شاب علوي من الطائفة النصيرية اسمه على أحمد سعيد (أدونيس)، خدعه طائفي آخر نصراني هو(أنطون سعادة) زعيم الحزب القومي السوري المعادي للإسلام والعروبة، من خلال الدعوة إلى ما أسماه (فينيقيا)، وقد تلقفت أدونيس جهات أخرى أتاحت له الحصول على الدكتوراه في الأدب العربي من معهد الدراســات الشرقية في الجامعة اليسوعية في بيروت، برسالة عنوانها (الثابت والمتحول: دراســة في الإتباع والإبداع عند العرب) حاول فيها أن يهدم صرح اللغة العربية الشامخ، ويثبت أن أصحابه غير مبتكرين أو مبتدعين، ويبرهن على أنهم لم يقدموا شيئًا للإنسانية، ويؤسس على ذلك (أيديولوجية) الحداثة التي خُدع بها عدد من الشباب العربي.

وشارك إلى جانب أدونيس الذي يرى أن الثقافة العربية بشكلها الموروث متخلفة وغير مبدعة؛ لأنها ذات معنى ديني؛ عدد آخر من الطائفيين والشيوعيين من أمثال محمد الماغوط وسعيد عقل صاحب تنظيم (حراس الأرز)، وشعار قتل الغرباء (أي قتل المسلمين)، ولويس عوض، الذي لعب دورًا خطيرًا في الحياة الثقافية بسبب

تعصبه ضد العروبة والإسلام، بالإضافة إلى بدر شاكر السياب، وعبد الوهاب البياتي، وكانا من أخلص دعاة الماركسية ورفض الإسلام[1].

احتقار التراث الإسلامي:

ويشير أنور الجندي أن الحداثيين تبنوا أمرًا آخر هو احتقار التراث الإسلامي العربي والزراية بالشعراء العرب القدامى المجددين، ونعتهم بالصنعة والتكسب، وإعلاء قيمة التراث اليوناني والروماني على ما فيه من وثنية.

ويقدم أنور الجندي مثالًا يسخر فيه أدونيس من معجزة الإسراء في قصيدة (السماء الثامنة). ويشير إلى الماركسي الفلسطيني معين بسيسو الذي يهزأ بالتراث وأعلام التاريخ، ومن طريقة الإسناد في الحديث النبوي الشريف، ويؤلف مقطوعة ساخرة يقول فيها: (حدثني وراق الكوفة/ عن خمار البصرة/ عن قاضٍ في بغداد عن سايس خيل السلطان/ عن جاريةٍ/ عن أحد الخصيان) الخ..

ويؤكد الجندي أن الشعر الحر مترع بالدعوة إلى الإباحية على نحو لم يشهده الشعر العربي، إلا عند بعض الشعراء الشواذ أو المنبوذين.

والعجيب أن دعاة هذا اللون العجيب قد قفزوا في كثير من البلاد العربية إلى حيث التحكم في وسائل الإعلام، حتى إنك تكاد تراهم يسيطرون سيطرة كاملة على هذه الوسائل في بعض بلدان العرب، وفي هذا الجو الإرهابي أصبحت ترى شعراء عموديين يكتبون قصائدهم، أو يعيدون كتابتها بعد تسطيرها وتبييضها وتقطيعها – إرضاء لهم وتقية – وقد ترجم كثير من تلك القصائد؛ ليس لجودتها وإنما أولًا لسهولة ترجمتها لمستشرق شاذ، أو لدوافع سياسية وعلل دينية. ونحن نرجح أنها

(١) في أواخر حياته تبرأ بدر شاكر السياب من الماركسية، وكتب كتابًا مهمًّا فضح فيه الماركسيين، وتحدث عن دور اليهود العراقيين الرئيسي في تشكيل الحزب الشيوعي العراقي، والكتاب عنوانه: كنت شيوعيًّا، نشرته دار الجمل بألمانيا عام ٢٠٠٧م

حركة مقصودة أريد بها طعن اللغة العربية؛ لغة القرآن والإسلام وعمادها؛ توطئة للإجهاز عليها.

ويستمر في رصد دور الماركسيين وأعداء الإسلام في هذا المجال ويشير إلى: بدر شاكر السياب والبياتي ودنقل، وشعراء المجون، ويوسف الخال وأمير إسكندر وجبرا إبراهيم، وأسعد رزق، وخليل حاوي وتوفيق الصايغ، وشوقي ابن سقا، وميشال طراد، وميشال سليمان، وموريس عواد، وغيرهم.

أيديولوجية الحداثة:

ويتناول أيديولوجية الحداثة في البلاد العربية بوصفها ثورة متمردة على كل نظام وقاعدة وقانون، وترمي إلى هدم الضوابط والحدود والقيم والقواعد التي قدمها المنهج الرباني. إنها ثورة اجتماعية هدامة، تتخفى وراء نصوص الشعر والأدب لتحجب غايتها الحقيقية وحركتها الشريرة، ويذكر أن دعاة الحداثة يهاجمون الثوابت التي قدمها الدين الحق في عنف شديد، ويصفونها بالجمود والمحافظة والتحكمات. ويشير إلى دورها في تخريب مجالات عديدة. ويربط بين الحداثة وحركة الزندقة القديمة، وجماعة المجّان الذين قادهم الشاعر أبو نواس، وقد تركوا تراثًا مسمومًا استطاع المستشرقون إحياءه عن طريق شعوبي جديد هو أدونيس الذي يحمل في أعماقه جميع أحقاد المجوسية والباطنية. منطلقًا من: نظرية التطور المطلق التي نقلها من فكر هيجل في دعوته إلى إلغاء الثوابت، وإحياء الوثنيات القديمة، وتحطيم عمود اللغة العربية، وتحطيم الفصحى لغة القرآن، وتحطيم عمود الشعر، ومهاجمة منهج الثبات والقيم، وإطلاق اسم السلفية عليه، والسلفية هنا تعني المعتقد الديني، وتغليب مفاهيم السريالية (النظرة التي لا يحكمها العقل) أو ما يسمى فوق الواقع، وتغليب طوابع الجنس والإباحة استمدادًا من مفهوم الإغريق وعبادة الجسد وإباحيات الوجودية التي دعا إليها سارتر، ونظرية التحليل

النفسي الذي يعتمد الجنس والتي دعا إليها فرويد، ونظرية العلوم الاجتماعية التي دعا إليها دور كايم، وفتح أبواب المجون والجنس والإباحة والتحلل الاجتماعي. على أن يدور ذلك كله في إطار (التاريخانية) وهي الحتمية التاريخية لماركس، فالمنهج الماركسي التاريخي هو الأساس الأيديولوجي للحداثة. ويربط الحداثة بحركة الحشاشين والباطنية والمجوسية المتنامية في حركة القرامطة، وهو ما ركز عليه أدونيس في كتابه (الثابت والمتحول).

الحداثة معادية للفطرة:

وينتهي أنور الجندي إلى إدانة الحداثة؛ لأنها محاولة كاذبة ومضللة ومحكوم عليها بالسقوط حيث تقوم على أسس معادية للفطرة والعلم والحق والمنطق، إنها نوع من التمويه الكاذب والخداع المضلل، وكل من اعتمد عليهم مفهوم الحداثة من رموز قديمة قد سقطوا فعلًا وداستهم الأقدام، ولم يدخلوا التاريخ إلا في باب الشعوبيين والباطنيين وأعداء الإنسانية، ولقد هُزموا فكريًّا في عصرهم، وذهب كل ما قالوه من أكاذيب وادعاءات، حتى جاء الاستشراق والغزو الفكري ليعيدهم إلى الحياة مرة أخرى.

إن (دعاة الحداثة) إنما يدعون إلى توهين السلطة المطلقة - وهي الدين - والنيل من السيد الأعظم (الله تبارك وتعالى، علا وجل عن كلماتهم المسمومة) ولن يتحقق يومًا أن تغلب الفئة الباطلة على النظام الرباني القائم في حكمه وقواعده وأي أصل من أصوله مهما تجمع لهذا دعاة الشعوبية والباطنية. ويستعرض أنور الجندي كثيرًا من النقاط المتعلقة بالموضوع مثل الحرية عند الحداثيين التي تعني التحلل من كل قيد ديني أو اجتماعي أو نظامي أو قانوني. ومثل ما يسمونه تجاوز السلفية ويقصدون تجاوز قيم الدين والأخلاق، ومثل حرية اللغة ويقصدون الخروج باللغة عن سياقها ومضمونها وتحررها من إطارها التاريخي والبلاغي المرتبط بالبيان العربي والقرآن الكريم. ويكثر أنور الجندي من تقديم الأمثلة

والنماذج التي تثبت ما يقوله حول الحداثة والحداثيين ومنهجهم في الترويج لأفكارهم الحداثية، وبالضرورة يبقى أدونيس محور هذه النماذج وتلك الأمثلة. وينتهي إلى أن الحداثة (أيديولوجية مناهضة) للإسلام والأخلاق، وأنها تستهدف (ثوابت الإسلام) والإيمان بالغيب وتقوم على أسس ثلاثة:

- عدم الانتماء لأي قيم أو منهج.
- التمرد على كل الثوابت وفي مقدمتها الدين والأخلاق.
- استعمال قواعد اللغة استعمالًا مغلوطًا.

خلاصة في الحداثة:

ثم ينتهي إلى خلاصة في (الحداثة) ترى أنها:

أولاً: ردة إلى طفولة البشرية وهجوم مستتر على الفصحى لغة القرآن بهدف تدمير منظومة البيان العربي التي عرفها العالم منذ أربعة عشر قرنًا والمنسابة في جميع كتابات العلماء والمؤرخين والفقهاء، والتي تقوم على فقه اللغة والبيان والتحقيق التاريخي الذي استمده المسلمون من علم الحديث النبوي.

ثانيًا: تهدف إلى تقويض المنزع الحقيقي للأدب العربي المرتبط بالقرآن الكريم والسـنة، كما تنزع إلى إغراقنا في مذاهب تجريدية والرموز والدادائية والسريالية.

***

المشروع الحضاري الإسلامي:

وفي أوراق أنوار الجندي مقال مهم بعنوان «المشروع الحضاري الإسلامي» يشير إلى رؤيته للمستقبل؛ حيث يتجاوز رصد الواقع ومشكلاته، ولكنه يطرح ما ينبغي أن تهتم به الأمة لبناء قوتها وعزتها والمشاركة في الحضارة الإنسانية، وفي

obeikandl.com

مقدمة المقال يؤكد على أنه لم يعد هناك مفر من أن يتقدم كتاب ومفكرو الأمة الإسلامية بتصوراتهم للمشروع الحضاري الإسلامي الذي أصبح ضرورة ملحة بعد أن مر المسلمون والعرب خلال السنوات الأخيرة بتحديات خطيرة وأخطار حاصرتهم؛ مما يتطلب وضع تصور أصيل مستمد من مفهوم الإسلام الجامع ليكون نبراسًا للخطوات المتصلة على طريق الأصالة والعودة إلى المنابع وإقامة معاصرة في دائرة الأصالة يكون فيها (البناء على الأساس)، وليكون هذا المشروع الحضاري الإسلامي بديلًا للمشروع الحضاري الوافد الذي حاول السيطرة على مقدرات المسلمين والعرب خلال قرن ونصف قرن من الزمان بعد أن ثبت عجزه عن العطاء وفشله في تحقيق الأمن النفسي والمجتمع الرباني.

إخفاق المشروعات العلمانية:

ويرى أن أي مشروع حضاري علماني أو قومي أو بشري لا يُمكّن لقيام الأمة القادرة على حمل رسالة الحق تبارك وتعالى للعالمين، والمشروع الذي تحتاجه الأمة لابد أن يستمد مفاهيمه من الأصل الأصيل الخالد: النص الموثق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، والذي جمع مختلف القيم الربانية العليا التي وهبها للبشرية (القرآن الكريم) والسنة الشريفة. ولا بد أن يكون المنطلق الحقيقي من القرآن والسنة على النحو الذي بدأت به النهضة الأولى إيمانًا بأن القرآن كتاب البشرية الخالد الصالح لكل زمان ومكان والينبوع الذي تنطلق منه المناهج والخبرات التي تمكن المسلمين خاصة (والبشرية عامة) من جني الثمار من خلال مخاطبة العقل والقلب والوجدان. ومن هذا المنطلق يمكن تأصيل كل المنظمات القائمة وردها إلى منابعها: منظمة الانتماء، ومنظمة المجتمع، ومنظمة التعامل الخارجي مع الغير وتكامل المجتمع الداخلي، وتصحيح مسار الاقتصاد ورفض النظام الربوي، ووضع المرأة في مكانها الطبيعي عمادًا للأسرة والمجتمع، وبناء التعليم على أسس التربية

الإسلامية وتوجيه أدوات الترفية والتسلية نحو الوجهة السليمة التي تحقق هدف الترويح دون الدخول في دائرة الانحراف والتبذل وحماية الوجود الاجتماعي كله من الانحراف الأخلاقي ومن الفساد والفحشاء والإثم كله.

الوسطية:

ويؤكد على امتلاك الإسلام قوة رائعة لا يمتلكها أي منهج بشري أو أيديولوجية أخرى، تلك هي الوسطية: وسطية التوازن والتكامل والمواءمة بين القيم بحيث لا يوجد من خلال ذلك أي صراع طبقي أو حصون بين الأجيال أو تضارب بين الآباء والأبناء.

ويوضح طبيعة الوسطية في ضوء التجربة الغربية التي انتهت إلى الفشل ويشير إلى أن المسلمين لا ينقلون نظم الآخرين ولكنهم يفيدون من الآليات والوسائل فيصهرونها في بوتقة فكرهم ويحولونها إلى مواد خام ينتفعون بها دون أن تحاصرهم أو ينصهروا فيها.

ويقوم المشروع الحضاري الإسلامي على أساس الوحدة الثقافية بين كل العناصر البشرية التي تستظل بلواء الأمة الإسلامية انطلاقًا من رسالات السماء، مع ملاحظة أن رسالة الإسلام مذ جاءت؛ صهرت قيم الشرائع السماوية وأخلاقياتها في منظور جامع واحد قوامه اللغة العربية.

والنظام الإسلامي هو المنطلق الحقيقي لبناء المشروع الحضاري الإسلامي بقاعدته العريضة من خلال فروعه الثلاثة:

١ - الشورى.

٢ - العدل الاجتماعي.

٣ - الحدود والضوابط.

الوحدة الإسلامية:

وهذه القيم الأساسية هي وحدها التي تمكن المجتمع الإسلامي من التماثل المفضي إلى الوحدة الإسلامية الجامعة حيث تتسع دائرة التشابه وتمتد بمفهوم (التعارف) الإسلامي، فتلتقي كل العناصر والأقطار والقوميات والنحل ويصير الوطن الإسلامي وحدة كاملة في مجال الاقتصاد والثروة والقوى العاملة والأرض الزراعية ومعطيات الركاز (المعادن) مما تكشف عنه الأرض كالبترول والمنجنيز والكوبالت والفوسفات والفحم وغيرها.

ويواصل أنور الجندي تأكيده على فشل الماركسية والرأسمالية في تحقيق أي خير للمسلمين، ومثلهما ما يسمى بالتيار الإسلامي اليساري أو التيار الإسلامي القائم على مفهوم الاستعلاء بالمفاهيم العقلانية المتخذة من المعتزلة والتي لا تقدم الإسلام مفهومًا جامعًا متكاملًا بين الوحي والعقل.

الخلافة والوحدة:

ويناقش المشروع الإسلامي في ضوء الحملة على الخلافة، ويرى أنها لا تحجب الوحدة الإسلامية الجامعة التي يمكن أن تتشكل في أية صورة من صور العصر، وقد قدمها بعض فقهاء القانون وغيرهم في صورة كومنولث إسلامي أو جامعة إسلامية، فإذا أضفنا إلى هذا التعددية الحزبية والشورى الملزمة والعلاقات السمحة مع غير المسلمين وترابط العروبة والإسلام تشكلت أمامنا صورة واضحة لملامح وخيوط المشروع الحضاري الإسلامي الذي يتطلب العمل على الأسس التالية:

ملامح المشروع الحضاري الإسلامي:

أولاً: أسلمة المناهج والعلوم والمعرفة وتقديم البدائل الأصيلة مكان المفاهيم الوافدة في مختلف المجالات.

ثانيًا: بناء قاعدة صلبة للتربية الإسلامية الخالصة التي تحتفظ بعناصر الأمة وقدرتها على الإيمان بحق الله تبارك وتعالى على المسلم في دائرة الاستخلاف

والعمران والسعي والتحرر من الضعف والرخاوة والترف الوهمي وكلها من علامة الهزيمة التي تبثها أدوات الترفيه.

ثالثًا: لابد أن تخرج الأمة الإسلامية من طابع الضعف وتدخل مرحلة الصمود والعزيمة وذلك حتى تستطيع أن تحقق وجودها الحقيقي وتقيم مجتمعها الأصيل الذي يحمل طابع ذاتيتها الخاصة المتحررة من التبعية.

سياق متقدم:

ولا شك أن رؤية الجندي للمشروع الإسلامي- التي كتبها فيما يبدو قبل عقود- تأتي في سياق متقدم يراعي المستجدات التي جرت للأمة الإسلامية من تمزقات وانقسامات، فضلًا عن وقوع كثير من بلدانها تحت الاحتلال الأجنبي وتعرضها للسيطرة الغربية وهيمنتها، فضلًا عن الغزو الفكري الذي طال بنيتها التعليمية والاجتماعية والثقافية، وافتقادها لمنهج العدل والشورى ومعالجة الفساد.

ويلاحظ أن أنور الجندي كان يلح على الفكرة الجزئية ويقلبها على أكثر من وجه، وكان أحيانًا يضطر إلى الاستطراد والعودة إليها ليزيدها إضاءة، ولكنه في نهاية الأمر يضيء الموضوع كله، ويقدم فكرته بوضوح شامل، بعد أن يقدم الأدلة والحجج والبراهين التي تساند وجهة نظره، وتمنحها عمقًا فكريًّا راسخًا.

ومع أن مقالات أنور الجندي تبدو فضفاضة، ومكتوبة بسرعة، إلا إنها تعبر عن طبيعة الرجل الحريص على تناول كثير من قضايا الأمة وواقعها، ويخشى أن يفوته منها شيء فيشعر بالتقصير في حق دينه أو أمته، ولكنه في كل الأحوال يقدم مادة غزيرة تتعلق بموضوعه وجزئياته وتغطيها تغطية شاملة.

الحوار الأدبي:

على مدى عمله الصحفي استطاع أنور الجدي وخاصة في مقتبل حياته الأدبية والصحفية إجراء كثير من الحوارات السريعة والطويلة، ويبدو أنه على كثرة

مقابلاته وحواراته لم يثبتها، واكتفى بالإشارة إلى بعض مقولات من حاورهم في ثنايا مقالاته وكتبه، ولكنَّ حوارًا مهمًّا - أشرنا إليه من قبل - نشره في مجلة «الأمة الإسلامية» ونشر في رجب ١٤٠٣هـ، أبريل ١٩٨٣م، مع العالم المفكر الراحل الدكتور محمد محمد حسين، يقدم لنا صورة دقيقة عن اهتمام أنور الجندي بقضايا الأمة الإسلامية ووعيه بأسبابها ونتائجها؛ ولذا يستنطق محاوره ليقدم تحليلات عميقة لما يسأل عنه من قضايا خطيرة يعالجها باحث خبير يملك أدواته وقدراته الفكرية والعقلية التي تصل به إلى تشخيص شامل، وعلاج ناجع.

إنه حديث نادر بحق؛ لأنه تناول كثيرًا من القضايا المهمة وتكلم فيها الدكتور محمد محمد حسين بجرأة واضحة وكشف عميق، كما كان الحديث الأخير للمفكر الراحل الذي لم يدل بعده بحديث آخر، وربما كان آخر الأحاديث التي أجراها أنور الجندي نفسه.

تعريف بالمحاوَر:

يبدأ الحوار بتعريف المحاوَر وبيان قيمته العلمية ومكانته الفكرية، فيقول:

« الدكتور محمد محمد حسين رئيس قسم الأدب واللغة العربية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، وأستاذ الأدب العربي في جامعة الإسكندرية منذ ١٩٣٣م، وهو يجاهد في سبيل مفهومٍ إسلامي أصيل للأدب العربي، وقد عمل سنوات طويلة في كلية الآداب بجامعة بيروت العربية، وأصدر عددًا من المؤلفات؛ في مقدمتها كتابه الأشهر الذي أدَّى خدماتٍ واسعةً بنقل وجهة النظر الإسلامية إلى شباب الجامعات - يقصد كتابه «الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر» في جزأين من الثورة العرابية إلى قيام الجامعة العربية (١٨٨٢ - ١٩٤٦م)، ومن مؤلفاته الأخرى المتعددة: كتابه (حصوننا مهددة من داخلها).

وقد أكمل التعريف باتجاهه الفكري في ثنايا الحوار بأنه: واحد من أبناء المدرسة الإسلامية الملتزمة التي نشأت في أحضان حركة اليقظة الإسلامية، وحملت لواء (أسلمة)

الأدب والثقافة في كلية الآداب على مدى خمسين عامًا وتحريرها من الزيف والسموم التي صبغها بها الدكتور طه حسين وشيعته، أمثال: علي عبد الرازق، وأمين الخولي، وإبراهيم مصطفى، وهو- أي محمد محمد حسين - رائد الأصالة في مجال الأدب، شأنه شأن علي سامي النشار في مجال الفلسفة، وعبد القادر عودة في مجال الشريعة والقانون، ومحمود أبو السعود وعيسى عبده في مجال الاقتصاد الذين ردوا إلى الإسلام اعتباره بعد أن طواه التغريب زمنًا في الدراسات الجامعية؛ فلهم أجرهم عند ربهم.

وقد توفي الدكتور محمد محمد حسين إلى رحمة الله في أول ربيع الآخر ١٤٠٣هـ، وقد أجرى معه الحديث أثناء زيارته القاهرة قادمًا من السعودية التي كان يعمل بإحدى جامعاتها، على أمل أن يُتمَّه في زيارة أخرى، غير أن قضاء الله نفذ قبل أن يُتم الحوار.

موضوعات الحوار:

ويلاحظ أن الحوار دار حول قضايا عميقة وجادة، ولم يتطرق إلى النواحي الشخصية أو المجالات البعيدة عن هموم الأمة. كان الحوار مركَّزًا حول تقويم المرحلة الفكرية السابقة وما جرى فيها، وتبعية الأمة للغرب، ومشكلة التربية والتعليم وقضية اللغة والشعر وغيرها من القضايا التي ما زال لها حضور عند تسجيل الحوار قبل ثلاثين عامًا، بل ما زالت حاضرة في أيامنا الراهنة.

كما يلاحظ أن القضايا المثارة في الحوار هي القضايا التي ألح عليها أنور الجندي نفسه في كتاباته ومؤلفاته، واستغرقت جهده على مدى حياته الفكرية والأدبية.

ولعل هذا ما جعل الحوار يبدأ بسؤال الدكتور محمد محمد حسين - رحمه الله - عن تقويم المرحلة التي أمضاها منذ نصف قرن (١٩٣٣ - ١٩٨٢م)، وهو يجالد في وجه التغريب والشعوبية والغزو الثقافي والسموم الناقعات التي طرحها الدكتور طه حسين وغيره في طريق الأدب العربي.

الاحتواء:

وكانت الإجابة مؤكدة على ضرورة مواجهة القيود والحواجز التي وضعت لاحتواء الفكر الإسلامي؛ حيث قال:

«لعلك تعرف من أحاديث بيننا مستفيضة ماضية فلم يدع (يقصد الغرب) مجالًا من المجالات إلا وضع قيوده وحواجزه حتى يحتويَ الفكر الإسلامي في دائرة معلقة، فلا يستطيع تحقيق ذاتيته أو التماس مصدره القرآني الأصيل، وهي محاصرة شملت عدة ميادين؛ أهمها وأخطرها ميدان الشريعة الإسلامية».

وينتقل الحوار إلى مناقشة التفاصيل فيتوقف عند الخطر الذي يتصل باحتواء الشريعة الإسلامية، ثم الخطر الذي يأتي من جانب تبعية التعليم في البلاد الغربية للمناهج الأجنبية، ثم دعوة التغريب والشعوبية والغزو الثقافي إلى إحياء الحضارات السابقة على الإسلام، ثم التحديات التي تواجه المجتمع الإسلامي نتيجةً لمخططات التغريب، ثم المؤلفات المسمومة التي أخرجتها الجامعة العربية في فترة تولي الدكتور طه حسن لرئاسة اللجنة الثقافية: مختارات إمرسون اليهودي، و«قصة الحضارة» لـ«ويل ديورانت» و«الحرية والثقافة» لديوي، وغيرها من المؤلفات التي تحمل سموم الطعن في التاريخ الإسلامي وإشاعة المفاهيم الصهيونية، ثم مخططات التغيير في مجال اللغة العربية،..،..

نماذج إجابات موجزة:

ويمكن أن نقرأ بعض النماذج الموجزة لإجابات محمد محمد حسين لنرى مدى عمق التجربة التي شغلت الرجل طوال نصف قرن وجعلته يصر على مجابهة الأخطار التي تواجه الأمة، وتعطل مسيرتها، وتصنع مضاعفات تزيد من متاعبها ومشكلاتها.

الشريعة والغرب:

حول احتواء الشريعة الإسلامية يقول:

«هذا المجال بذلت فيه القوى الاستعمارية وذات النفوذ في البلاد العربية بعد الحرب العالمية الثانية جهودًا كبيرةً من أجل احتواء الشريعة الإسلامية تحت اسم التطوير، بحيث تصبح أداةً لتبرير القيم الغربية وتقريب ما بين الشعوب الإسلامية والغرب، فهي الغاية الأخيرة والهدف المقصود الذي يسعى إليه، ومن أساليبهم في هذا التطوير أن يستدرجوا المسلمين إلى مؤتمراتٍ للكلام في نقاطٍ معينةٍ من نظم الشريعة التي تخالف ما أسفر عنه عُرف الغربيين مما يجري باسم المدنية؛ وذلك لكي يُلجِئوهم إلى تحريفِ نصوص القرآن والحديث والميل إلى ما يوافق العادات الغربية السائدة.

وأكثر ما تجد هذا التحريف في المرأة وما يتصل بشئونها، مثل ما يدَّعي بعضهم من أن الإسلام قد أسَّس للمرأة حقوقًا في الحكم أو الكلام عن الحجاب والنقاب وتعدد الزوجات والزنا.

التبرير والاعتذار:

وقد يُطلَب من أحدهم أن يتحدث عن هذه الموضوعات فيشغل نفسه بتبرير الأساليب العصرية السائدة مما يخالف الشريعة الإسلامية، فينتحل لها الأعذار ويخترع الحيل لتحليلها ومحاولة الميل إلى أقصى ما تحمله النصوص نحو القيم الغربية إرضاءً للداعين إليه، وبذلك يقع في الأحبولة التي دبَّرها له ولأمثاله دهاقنة المستشرقين.

فهو في سبيل دفع تهم الجمود التي يلصقها الغربيون بالشريعة ينجرف إلى أقصى الطرف المناقض في بيانٍ ما تنطوي عليه الشريعة من مرونة التطبيق حتى يبلغ بهذه المرونة حد الميوعة وانعدام الذات والمقومات التي تجعلها لأن تكون

ذيلًا لأي نظامٍ وتبعًا للأهواء، وبذلك ينتهي إلى إلغاء وظيفة الدين؛ لأنه بدلًا من تقويم عوج الحياة بنصوص الشريعة يحتال على نصوص الشريعة حتى يبرر عوج الحياة المعاصرة.

وتُجرَى دراسات المستشرقين ومؤتمراتهم نحو هذه الغاية الخطيرة، وهي تهدف إلى محاصرة (الدين) لتضييق دائرة نفوذه وقصرها على شئون العبادات وإلغاء المعاملات التي يقوم عليها تنظيم المجتمع.

إعادة النظر في الدين:

كذلك فإنَّ من محاذير أعمالهم مع بعض من يؤيدهم من علماء المسلمين فكرة إعادة النظر في الدين وتطويره، ومنهم مَن يطالب بوضع تجربة الدين وتجربة النبوة والمعجزات والصلاة والحياة الآخرة موضع البحث وإخضاعها لقوانين علم النفس الحديث التي تقوم على الحدس، وتخضع للتغيير والتبديل.

حصوننا مهددة من الداخل:

وحول تبعية التعليم للغرب يقول الدكتور محمد محمد حسين: إن حصوننا مهددة من داخلها.. إن وزارات التربية والتعليم هي أهم المعاقل والحصون الساهرة على أمن الشعوب وكيانها؛ لأنها هي المؤتمنة على أثمن ما تملكه الأمة من كنوز، وهي الثروة البشرية بما ينطوي عليه من قوى مادية ومن ملكات تُشرف على تربيتها، وهي ثروة تتضاءل إلى جانبها كل كنوز الأرض؛ لأن كنوز الأرض لا تساوي شيئًا بدونها؛ فالعقل هو الذي يستخرجها، والخلق الديني هو الذي يدفع الناس إلى بذل الجهد وإلى إعمال هذا العقل فيما وُكل إليه من أمور، ولا ريب أن اتصال القائمين على شئون التربية والتعليم في هذه البلاد العربية بالمؤسسات الغربية للتعاون معها في ترويج مبادئ وأساليب يُقال إن المقصودَ بها هو رفع مستوى التعليم وإصلاح

شئون الجيل الجديد؛ أمر لا يصدقه عقل ولا يتفق مع ما يبذلون من محاولات ظاهرة وخفية لابتلاع هذه الأمة والكيد لها.

إن التقدمَ الصناعي لا يُغني شيئًا إن غفلنا عما حفظه التاريخ من دروس وعظات فتفرَّقت بنا السبل ودبَّ فينا دبيب الخلاف ومزَّقتنا الدعوات المتنافرة التي ينقض بعضها بعضًا، والدين واللغة هما أهم دواعي الألفة والتماسك في كل مجتمعٍ إسلامي، والدين هو الذي يوحِّد العادات والأمزجة، فتجمُّع الناس فيما يحبون وفيما يكرهون وفيما يألفون وفيما يعادون على ألوان معينة من الأساليب البيانية؛ لذلك كانت المعاهد والمؤسسات التي تقوم على صيانة الدين واللغة هي بمثابة الحصون والمعاقل التي تسهر على حمايتنا وسلامتنا.

وتحاول بعض الدول الغربية أن تجمع رجال التربية في مؤتمرات لاحتوائهم وتوجيههم وجهتها هي.

سلخ العرب من دينهم:

والمركز الدولي للتربية الأساسية في العالم الغربي لا عملَ له إلا سلخ الريف العربي من دينه وخلقه وعروبته، وطبعه بالطابع الغربي؛ إتمامًا لما بذله الغرب من جهود في «فَرْنَجِة» هذه المنطقة بعد أن أعلن المستشرقون أن تأثير «الفَرْنَجَة» أو التغريب لم يتجاوز المدن، وهو احتيال خبيث لدخول الريف بعد أن عجز التنصير وعجزت الأساليب الاستعمارية عن اقتحامه إلى ما بعد الحرب العالمية الثانية، وها هو يقتحم اليوم تحت ستار ما يُسمَّى بالتربية الأساسية.

وهي بهذا تهدف إلى تغيير الأفكار والنزعات والاتجاهات على أسسٍ غربيةٍ خالصةٍ تُروَّج باسم العلم؛ هذا التغيير لا يبالي أن يخالف الإسلام وتعاليمه؛ لأن القائمين على هذا التغيير هم مجموعة من الخواجات الذين يختفون خلف الشخوص

العربية التي تبدو للناظر وكأنها تتحرك بإرادتها وهي تسير وراء خطوط مرسومة.

وتهدف هذه المؤسسات إلى إفساد المرأة الريفية و«فَرْنَجِتها» واستئصال حيائها وخلط الذكور بالإناث وإخراج المرأة إلى الأسواق وامتهانها بين الرجال؛ مما يُعرِّض المجتمع كله للانحلال والاندثار، والهدف الخفي هو استفادة معلومات دقيقة من مصادر موثوق بها تخدم الذين يرسمون الخطط السياسية والحربية لهذه المنطقة.

فضلًا عن إفساد البنين والبنات في الرحلات المختلطة، وهو ما تدعو إليه الماسونية بتحويل الأنظمة الوطنية إلى أنظمة عميلة.

إننا إذا احتجنا إلى الاستفادة من خبرة الغرب وتفوُّقه في الصناعات الآلية التي كانت سببًا في مجده وسيادته، فمن المؤكد أننا في غير حاجةٍ إلى استيراد قواعد السلوك والتربية والأخلاق التي تدل الأمارات والبوادر على أنها ستؤدي إلى تدمير حضارته والقضاء عليها قضاءً تامًّا في القريب العاجل.

دعوة باطلة:

وحول الدعوة التي يسمونها تطوير قواعد اللغة العربية أو تهذيبها أو تيسيرها أو إصلاحها أو تجديدها يقول الدكتور محمد محمد حسين: إنها تعني شيئًا واحدًا هو التحلل من القوانين التي صانت اللغة العربية خلال ألف عام أو يزيد، وقد اقترنت هذه الدعوة بصعوبة قواعد اللغة العربية وتوقفها عن النمو والتطور وتخلفها عن مسايرة العصر والانتفاع بما استحدثه الدارسون في الدراسات، وهي دعوة باطلة من وجهين:

هي باطلة أولًا؛ لأنها تتجاهل سنة الله من خلق الناس شعوبًا وقبائل، وكان من آياته وسننه فيهم اختلاف ألسنتهم، وطبيعي حين تختلف الألسنة أن تختلف قواعدها؛ لأن القواعد التي تنظِّم لغة كل مجتمع تنبع من واقعها وتلائم طبيعتها ونظامها.

ومحاولة توحيد القواعد والنظم في اللغات أو في الجماعات البشرية على وجه العموم غرض خبيث؛ يعلم الداعون بها - أو لا يعلمون - أنه فرع من محاولات متعددة تتجه كلها إلى هدف واحد هو طمس الفوارق المميزة بين الأجناس والجماعات البشرية؛ دينية كانت هذه الفوارق أو قومية أو فنية جمالية، مما تسعى إليه الصهيونية العالمية حتى تنحل الروابط التي تقوم عليها المجتمعات البشرية المختلفة، فلا يبقى على وجه الأرض مجتمع متماسك غير المجتمع الصهيوني.

والوجه الآخر: أن أصحابها حين عاينوا الداء لم يصيبوا الدواء؛ رأوا ضعف الجيل الناشئ في اللغة العربية وانصرافه عن تراثها وعجزه عن تذوق أساليبها وروائع آدابها، فظنَّ أن العلة في قواعد هذه اللغة، والحقيقة أن العلة في الذين يعلمون القواعد أو يتعلمونها؛ فكلاهما مقصِّر وكلاهما ابتليت به الأمة العربية في سائر مناشطها من العجز والتفريق وضعف الهمم.

مواكبة الأجواء الحضارية:

وقد ظلَّت هذه اللغة قرونًا طوالًا تزيد عن ألف عام صلحت فيها لمواكبة الأجواء الحضارية التي تقلَّبوا فيها بين مشارق الأرض ومغاربها؛ لم تَضِقْ بشيء منها ولم ينتبهوا إلى وجود هذا النقص في اللغة إلا في نصف القرن الأخير تقليدًا لدعاة المستغربين الذين أخذوا يؤلفون الكتب في اللهجات العامة واقترحوا لهذه اللهجات لغة لتحل محل العربية الموحَّدة في تدوين العلوم والآداب، كما اقترحوا كتابتها بالحروف اللاتينية.

وخطر هذه الدعوات على التراث الإسلامي وعلى الأجيال التالية بين أبناء المسلمين وأبناء العرب خاصة؛ واضحٌ لا شك فيه؛ فكلها ترمي إلى عزل هذه الأجيال عن تراثها بتغيير رسم الخط تارةً وبتطوير اللغة تارةً أخرى، وبتغيير مصطلح العلوم اللغوية من نحو وصرف وبلاغة تارةً ثالثة، وهو مصطلح يشيع استعماله في كل كتب التراث من تفسير القرآن الكريم وشرح الحديث الشريف وشرح النصوص الشعرية والنثرية.

اللهجات العامية:

ثم جاءت بعد ذلك خطوات لتطبيق أساليب جديدة منقولة من دراسات اللغات الغربية أو ما يُسمَّى علم اللغة العام، واقترنت هذه الدعوة بالعناية باللهجات العامية وآدابها أو ما يسمونه بالأدب الشعبي، ونشأت باقتراح بعض المستشرقين من رجال الاستعمار حين جمعوا طائفةً من الأغاني والمراثي والمواويل والأناشيد العامة تروِّج لدعوتهم، واتخذوا بعض ما يسمونه الأدب الشعبي في «ألف ليلة وليلة» موضوعًا للدراسة، هذه الدراسات نشأت نشأةً فاسدةً في حضانة الاستعمار.

لنكن صرحاء مع أنفسنا: من أين جاءتنا هذه الدراسة؟ هل نشأت لحاجة تنبعث من واقعنا؟ إنها اقتُرحت بواسطة أجهزة الاستعمار والتنصير، وقد كانت في أول الأمر في الصحف والمجلات، أما الآن فقد دخلت إلى نطاق المعاهد الدراسية والجامعات حين أرسلوا بعثتين إلى إنجلترا لدراسة اللهجات واللغويات على طريقة الغربيين، وعاد كل هؤلاء وكل بضاعتهم التي لا يحسنون سواها هي دراسة اللهجات، وسارت دراسات الأدب الشعبي مواكبة هذا الاتجاه، في الوقت نفسه في كليات الآداب ودار العلوم زعم المخدوعون والمفسدون أن الغرض من دراسة اللهجات تعليم المنهج، فلأي غرض نريد أن نتعلَّم منها دراسة لهجات العربية العامية ووضع قواعد لها إذا لم يكن ذلك تمهيدًا لإكسابها شيئًا من الاحترام ورفع قدرها عند عامة الناس توطئ لاتخاذها لغةً للأدب والتدوين أو تطعيم العربية الفصحى بها على أقل تقدير وللوصول إلى ما يسميه اللغة الثالثة أو اللغة الوسط؟

منهج خاص:

والحقيقة أن لنا منهجنا الخاص الذي أثبت طوال ألف عام أو يزيد صلاحيته، ولا حاجة لنا إلى المنهج الوافد؛ فقد صان منهجنا اللغة العربية، ولا يزال، وواجه احتياجاتها وما جدَّ من شعوبها طوال تلك القرون، فاصطلى بها ولم يَعِ ولم يَضِقْ

بضبط تطوراتها وتوسعاتها من بغداد شرقًا إلى أقصى بلاد المغرب والأندلس غربًا.

وإذا استحدثت مناهج جديدة ومصطلحات جديدة فقد حكمنا بالإعدام على تراثنا لا على تراثنا النحوي والصرفي واللغوي وحده، بل على التراث كله الذي يستعمل هذه المصطلحات في شرح دواوين الشعر ومختاراته، وهو تراث سوف يتمسك به المسلمون من غير العرب وينفرد بمخالفته العرب.

فصل الخطاب:

فلنضع السؤال الصريح الذي فيه فصل الخطاب: هل نريد أن نظل مسلمين تحكمنا أصول الإسلام ونتعرَّف وجوه النفع والضرر من وجهة نظر إسلامية؟ أم أننا نخدع أنفسنا وننافق الناس؟ ليتنا نعرف أننا لا نُحرِّف الناموس ولا نهرب من حكم الله، وأن الذي يرفض أن يعمل عملًا مأجورًا من الله والناس يضطر في آخر المطاف أن يعمل لعدوه مستعبدًا دون أجر.

***

الوعي الحاد:

وهكذا نرى من الإجابات التي قدمها المحاوَر وعيًا حادًّا بطبيعة الظروف التي يعيشها المسلمون في ظل استباحة من جانب خصوم الإسلام في الداخل والخارج، وهو ينبه إلى المخاطر التي تتهدد الأمة، ويشير إلى المسالك والطرق التي ينبغي على المسلمين السير فيها كي لا يقعوا ضحية المكر والخداع من جانب أعداء الدين والطامعين في ثروات الأمة والراغبين في فصلها عن تاريخها وتراثها فضلًا عن شريعتها.

ونلاحظ أن الحوار جمع بين السائل والمجيب حول نقاط مهمة تجمعها وتشغلهما، فلو كان السائل لا تعنيه قضايا الأمة أو لا يهتم بها لما كان لأسئلته مثل هذا العمق وذلك الاهتمام، ولو كان المجيب مهتمًّا بذاته وشخصه بعيدًا عن هموم الأمة لما أفاض في إجاباته بمثل هذا التفصيل الدقيق الواعي، والخبرة العميقة

بأساليب الأعداء وأفكارهم ومناهجهم.

بالطبع كان المأمول أن تكون هناك لقاءات أخرى بين السائل والمجيب، ولكن قدر الله سبق واسترد وديعته، فرحل الدكتور محمد محمد حسين، على بارئه، وبقي أنور الجندي يجاهد بقلمه حتى لحق به بعد سنوات، رحمهما الله.

***

البحث

تبدو روح أنور الجندي الأدبية الموجودة في المقال والحوار موجودة في بحوثه التي تناولت القضايا الفكرية والأدبية المختلفة، فإذا عددنا المقالة مثلًا بحثًا مصغرًا، فإن البحث المطول الذي يظهر على هيئة كتاب يبدو مقالة طويلة، فيه كثير من الجزئيات والأفكار التي يعالجها، ويراجعها، ويقيم الدليل على صحة ما يذهب إليه. وفي أبحاثه أفكار ومعلومات- لعل كثير من الباحثين لا يعلمون بها أو لم يصلوا إليها ولكنه يقدمها ويضمنها أبحاثه. وهو أمر مهم بالتأكيد ساعد عليه كثرة اطلاعه على مصادر ما يكتبه ومراجعه وخاصة الدوريات الأدبية والثقافية التي كان يعتمد عليها في تتبع القضايا المعاصرة وحركة المهتمين بها والمروجين، وهو ما لا يتاح لكثير من الباحثين الذين يقصرون جل اهتمامهم على الكتب المؤلفة أو المحققة أو المترجمة. أما هو فقد كان يرى فيما تنشره الدوريات سواء كانت صحفًا يومية أو مجلات أسبوعية أو شهرية أو فصلية أو غيرها؛ نصوصًا مهمة تخدم ما يبحث فيه أو يدرسه.

وأذكر أنه كان يذهب بصورة منتظمة إلى معهد الدراسات العربية في شارع الطلمبات بجاردن سيتي[1]، وكانت فيه مكتبة متخصصة للدوريات التي تصدر في أرجاء الوطن العربي، تقع في بدروم المكتبة الرئيسية، وقد ارتبط بصداقة مع العاملين في المكتبة الذين كانوا يترقبون وصوله صباح كل يوم- عدا العطلات

(١) جوار دار الحكمة بشارع قصر العيني

obeikandl.com

الرسمية – وكانوا يجهزون له ما يوصي به من دوريات يبحث فيها، وكان ينقل منها على ورق من الذي كان يستخدمه الصحفيون في الصحف اليومية، وذلك قبل استخدامهم للكمبيوتر والإنترنت.

استطاع أنور الجندي أن يجمع كثيرًا من النصوص التي تؤيد ما يكتبه من وجهات نظر، ولكنه للأسف الشديد كان يكتفي بذكر الدورية، دون أن يحدد وقت الصدور أو ذكر الصفحة أو الصفحات، وهو ما أخذه عليه كثير من النقاد، وكان مسوغه في ذلك أن ذكر الكلام وصاحبه يكفي، أو إن ما يشير إليه معروف لدى المتخصصين، ولعل دافعه إلى ذلك كان حرصه على الوقت، ورغبته في معالجة كثير من القضايا التي كان يريد مناقشتها والكتابة حولها.

وقد حاولت تدارك ذلك في بعض كتبه التي أعيد طبعها، ولكنها أرهقتني، بسبب عدم توفر المصادر والمراجع لدي، ولعل بعض من يهتمون بإعادة طبع كتبه يحاولون تدارك هذا الأمر بقدر الاستطاعة مستقبلًا.

كل الفنون والمجالات:

يمكن القول إن أنور الجندي لم يترك فنًّا أدبيًّا أو مجالًا فكريًّا أو حقلًا ثقافيًّا لم يكتب فيه، فقد كتب في كل الفنون والمجالات والحقول. وامتد بحثه ليطول، ويتحول إلى موسوعة كما في موسوعاته العديدة التي خصصها للأدب والتاريخ والصحافة والفلسفة.

وبصفة عامة فإن بحثه يحاول أن يلم بأطراف الموضوع وجزئياته، وقد يكون هناك نوع من التكرار لبعض الفقرات أو بعض الجزئيات، ولكن هذا يعود للعجلة وحرصه على تناول موضوعه والانتهاء منه ليستعد لموضوع آخر.

وقبل أن يعرض لموضوعه يتناول في المقدمة سبب كتابته، وأهمية الموضوع

بالنسبة للأمة وعلاقته بالإسلام الذي هو مصدر الحركة والتفكير، وقبل أن يبدأ تناول البحث يضع أمام القارئ أهم النقاط أو الأفكار الرئيسية التي ستكون مجالًا للعرض والمناقشة ويصل بعد ذلك إلى نتائج تكون خلاصة الفكرة الأساسية.

وفيما يلي نشير إلى بعض النماذج من بحوثه التي عالج فيها أكثر من موضوع، يتعلق بكتابات المعاصرين في ضوء الإسلام، اليقظة الإسلامية في مواجهة التغريب

أولًا: تصحيح المفاهيم في ضوء الكتاب والسنة:

يمثل هذا الكتاب حلقة من حلقات الدفاع عن الإسلام وقيمه، وذلك من خلال بيان المفاهيم الصحيحة للشريعة الإسلامية وعقيدة التوحيد. وجاء تأليف الكتاب ليواجه حالة من اختلاط المفاهيم والمصطلحات بسبب قصور التعليم والإعلام والتربية عن إشاعة الصورة الناضجة والصحيحة للإسلام.

ويقدم أنور الجندي في هذا البحث مجموعة كبيرة من المفاهيم ويوضحها وفقًا للتصور الإسلامي، كما يقدم وجهة نظر الإسلام في المصطلحات المعادية للإسلام والمناقضة له، ويبدو البحث موسوعة ميسرة لمفاهيم الإسلام الصحيحة، والمفاهيم المخاصمة له أو المعادية.

وجاء البحث في قسمين أساسيين:

أولاً: مفاهيم الإسلام الصحيحة:

التوحيد، أصول الإسلام، الفطرة، الاجتماع الإسلامي، القرآن الكريم والسنة، التربية الإسلامية، الغيب، الفن الإسلامي، سنن الله، الاقتصاد الإسلامي، الفكر السياسي الإسلامي، الفصحى لغة القرآن، النبوة، وحدة الدين، الروح، الحضارة الإسلامية، الشريعة الإسلامية، تاريخ الإسلام.

ثانيًا: المفاهيم المغايرة لمفاهيم الإسلام:

التغريب، الاستعمار، الطائفية، الفاشية، الإقليمية، العلمانية، الأيديولوجيات، الروحية الحديثة، الأنثروبولوجية، الوجودية، الفلكلور، الاقتصاد، الاستشراق، الديمقراطية، الحكومة الثيوقراطية، العروبة، السامية، التقدم، الفرويدية، الفرعونية، الأسطورة، الانفجار السكاني، أزمة الحضارة المعاصرة، الاجتماع والعلوم السياسية، التفسير، الرأسمالية، الشعوبية، القومية، السلفية، الصهيونية، الدارونية، البهائية، التطور، الشعر الحر، فساد نظام الربا، القصة.

ويقع البحث في ٤٨٠ صفحة. وقد نشرته دار الاعتصام، القاهرة، ١٩٨٣م.

***

ثانيًا: إعادة النظر في كتابات العصريين في ضوء الإسلام:

وهذا البحث يناقش موضوعًا صعبًا وحساسًا؛ لأنه يواجه أشخاصًا بأعينهم في حياتهم، أو من تلاميذهم وأنصارهم المبثوثين في أرجاء الحياة الأدبية والإعلامية. هؤلاء الأشخاص يمثلون النخبة المعارضة للإسلام وقيمه، وفي الوقت ذاته يهيمنون على وسائط التعبير والنشر، فيسمحون لأفكارهم بالذيوع، ويحرمون الفكر الإسلامي من الظهور أو التعبير عن نفسه. وقد كتب أنور الجندي في مقدمته:

« في مطلع هذا القرن الهجري الخامس عشر تقتضينا أمانة القلم ومسئولية الكتابة في الثقافة والأدب والعمل الصحفي خلال أربعين عامًا أن نعيد النظر في كتابات العصريين الذين حاولوا السيطرة على آفاق الفكر الإسلامي الأصيلة وتحويلها من وجهتها الخالصة لله تبارك وتعالى إلى وجهات متعددة وصدق الله تبارك وتعالى: «وأن هذا صراطي مستقيمًا فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله»(الأنعام:١٥٣). (انظر الكتاب، ص ٥).

وبعد أن استعرض فساد الصحفيين والكتاب والحصار الذي فرض على الكتاب الإسلاميين والصحافة الإسلامية كتب يقول:

"من أجل هذا كله كان لابد من "إعادة النظر في كتابات العصريين". اللهم اجعلنا سلمًا لأوليائك حربًا على أعدائك، نحب بحبك من أحبك ونبغض ببغضك من خالفك، هذا وبالله التوفيق، (انظر، ص٢١).

وقد تضمن البحث النقاط التالية:

- استعلاء موجة الجنس في الأفلام والمسرحيات والمسلسلات.

- حقيقة القمم الشوامخ والعمالقة.

- خلفاء طه حسين وغلمان المستشرقين وزكي نجيب محمود - توفيق الحكيم - حسين فوزي.

- سقوط مذهب الوجودية.

- المؤامرة على الفصحى لغة القرآن - لويس عوض

كتاب العصر:

أ - جيل الرواد: (رفاعة الطهطاوي، لطفي السيد، علي عبد الرازق، أمين الخولي، حسين فوزي، العقاد، هيكل، طه حسين)

ب - كتاب لبنان المارون (فارس نمر، فرح أنطون، سليم سركيس، يعقوب صنوع، شبلي شميل، أديب إسحق، لويس صابونجي، جبران خليل جبران (أدب المهجر)، جورجي زيدان (روايات الإسلام).

ت - الفن والمسرح: نجيب الريحاني - زكي طليمات- يوسف وهبي.

ث - دعاة التغريب: (ساطع الحصري (القوميات)، سلامة موسى (التغريب)،

توفيق الحكيم (التغريب)، لويس عرض (التغريب).

ج - نجوم الصحافة: (مصطفى أمين، إحسان عبد القدوس (القصة)، أمينة السعيد (الصحافة النسوية) حسين مؤنس (التغريب)، صلاح جاهين (العامية)، يوسف إدريس (التغريب)، أنيس منصور)

ح - دعاة الشعوبية:

- مناهج التعليم: أتباع ديوي (إسماعيل القباني - عبد العزيز القوصي).
- د. محمد أحمد خلف الله (الشعوبية)
- عبد الرحمن بدوي (الفلسفة الوجودية).
- غالي شكري (التراث).
- زكي نجيب محمود (التغريب).
- عبد الرحمن الشرقاوي (التفسير المادي للتاريخ)
- عمر عبد العزيز أمين (ترجمة القصة)
- صلاح عبد الصبور (الشعر الحديث بلا شهادة ميلاد)
- عصبة العلمانية أعداء الشريعة الإسلامية - خلفاء علي عبد الرازق: (خالد محمد خالد، محمد عمارة [قبل تصحيح موقفيهما]، محمد أحمد خلف الله، أحمد بهاء الدين، محمد سعيد عشماوي)
- إعادة النظر في كتابات التغريب.

وقد نشرت الكتاب في ٣٣٤ صفحة دار الاعتصام، القاهرة، إيداع ١٩٨٥م.

***

obeikandl.com

ثالثًا: اليقظة الإسلامية في مواجهة التغريب:

لعل هذا البحث من أوائل – إن لم يكن أول – البحوث التي تحدثت عن اليقظة الإسلامية، ودورها في مواجهة التغريب والاستلاب الفكري والحضاري، وقد ركز فيه على بيان طبيعة التغريب ومعالمه في الساحة الفكرية والأدبية والثقافية بوجه عام، وما بذله رواد اليقظة الإسلامية في مواجهة التغريب والقائمين عليه.

يقول أنور الجندي:

" يعنى هذا البحث بدراسة حركة اليقظة العربية الإسلامية فترة ما بين الحربين (١٩٢٠ - ١٩٤٠)، ولما كانت هذه المرحلة إنما تمثل حلقه من حلقات الفكر الإسلامي كله منذ فجر الإسلام، وكانت حركة اليقظة في العصر الحديث قد بدأت في منتصف القرن الثالث عشر الهجري (عام ١٢٥٦م تقريبًا) فإن الأمر يقتضي تقديم عرض سريع شامل للمعطيات التي قدمتها المرحلة السابقة حتى أوائل الحرب الأولى حتى يمكن استعراض هذه المرحلة الدقيقة التي حفلت بالتحديات والأخطار والتي واجهتها حركة اليقظة في دقة وحسم، واستطاعت أن تكشف زيفها وأن ترد عاديتها وخطرها، وأن تكسب إلى صفها بعض خصومها"[1].

وقد تضمنت صفحات البحث مظاهر التغريب على النحو التالي:

- إقليمية الأدب.
- الهجوم على الفصحى.
- التغريب.
- تزييف التاريخ وتدمير البطولة.

(١) الكتاب، ص٥

- إحياء الأساطير.
- الشعوبية واتهام العقلية العربية.
- إسقاط الحضارة الإسلامية.
- الإغريقيات والنزعة اليونانية.
- فصل الأدب عن مقومات المجتمع والفكر.
- المرأة والمجتمع.
- الأدب المكشوف والإباحية.
- الدعوات الهدامة.
- الإقليمية الضيقة.
- تعظيم الغرب.

ثم تناول البحث ما قامت به مدرسة اليقظة الإسلامية من جهود في مكافحة التغريب كما يلي:

- مدرسة اليقظة: أعمدتها ومناهجها (عبد الحميد بن باديس، محمود أبو العيون، مصطفى صادق الرافعي، فريد وجدي، محمد مصطفى المراغي، علي العناني، محمد أحمد الغمراوي، حسن البنا)

- صحافة اليقظة: مجلة المنار، مجلة الفتح، مجلة الشبان المسلمين، مجلة الرسالة، مجلة دار العلوم، مجلة الأزهر، مجلة النذير.

- رفض حركة التغريب: منصور فهمي، إسماعيل مظهر، الدكتور هيكل، زكي مبارك.

obeikandl.com

- كبرى قضايا الفكر العربي: قضية تحريف المفاهيم وتزييف القيم. تقرير اللجنة عن كتاب الأدب الجاهلي. ظاهرة الضعف والتخلف في العصور الأخيرة.

- أصول الثقافة العربية.

وقد نشرت الكتاب في ٤٠٥ صفحة دار المعرفة، القاهرة، إيداع ١٩٧١م.

***

رابعًا: التربية وبناء الأجيال في ضوء الإسلام:

يعد التعليم المرتبط بالتربية عاملًا مهمًّا من عوامل التأثير في المجتمع إيجابًا أو سلبًا، فإذا حسنت التربية والتعليم كانت النتيجة إيجابية لصالح المجتمع، ووفرت عليه كثيرًا من المتاعب، والعكس صحيح، وهو ما تعاني منه المجتمعات الإسلامية عامة ومصر خاصة.

يقول أنور الجندي:

"هناك سؤال يطرح نفسه في أفق العالم الإسلامي بقوة، وتلح الأحداث المتصلة في طلب الإجابة عليه، وهي مقدمة اليوم على كل سؤال، هذا هو: ما هو الخنجر الذي طعن به المسلمون ؟ لقد تحدث المصلحون عن مقاتل متعددة أصيب بها المسلمون في كيانهم، ولكن أمرًا من ذلك كله لم يكن أشد خطرًا من احتواء الركن الركين في بناء الأمم: احتواء التربية والتعليم..."[1].

وقد قسم المؤلف بحثه على النحو التالي:

الدراسة التاريخية على المستوى الأفقي، وتشمل:

- الغزو التربوي والتعليمي والثقافي.

- مدارس الإرساليات.

(١) انظر الكتاب، ص ٧

obeikandl.com

- التعليم الوطني.

الدراسة الموضوعية على المستوى الرأسي، وتتضمن:

- واقع التربية الوافدة في العالم الإسلامي وآثارها.
- أوجه الخلاف بين المناهج.
- أوجه النقص في الاقتباس.

التربية والتعليم والثقافة في إطار الإسلام، ويشمل:

- التربية الإسلامية.
- التعليم الإسلامي.
- الثقافة الإسلامية.

وقد نشرت البحث في ٢٣١ صفحة دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٢م.

***

طاقة كبيرة:

ولا ريب أن تفرَّغ أنور للجندي للبحث، وطاقته الكبيرة في البذل والعطاء، بالإضافة إلى بركة الوقت التي منحها الله له، كانت من وراء هذا الإنتاج الضخم الهائل من الأبحاث الذي تحول بعضه إلى موسوعات كبيرة تضم العديد من المجلدات، وموسوعات صغيرة تناسب الشباب والباحثين على عجل عن المفاهيم الأساسية الموجزة.

وكما رأينا فقد كان الرجل يلح على فكرته وتقليبها على وجوهها المختلفة- لدرجة التكرار أحيانًا- ليقدم لنا في النهاية أساسًا قويًّا للخلاصة التي ينتهي إليها، وفقًا لمفاهيم الإسلام وتصوراته.

وفي كل الأحوال فقد كان أسلوب أنور الجندي سهلًا يسيرًا، ساعدت عليه الصحافة التي عمل بها طويلًا، واتجهت إلى تقديم الدلالة بأقل الكلمات وأبسطها وأيسرها.

obeikandl.com

ثانيًا: القضايا التي عالجها

كثيرة هي القضايا الأدبية التي ألح عليها أنور الجندي في كتاباته المختلفة، ففضلًا عن تناول القضايا الإسلامية التي تتعلق بالعقيدة والشريعة والثقافة الإسلامية عمومًا؛ فقد كان اهتمامه بقضايا اللغة والشعر والنقد الأدبي والشخصيات الأدبية والصحافة من أهم ما ركَّز عليه عبر كتبه ومقالاته وموسوعاته العديدة.

وفي السطور التالية سوف نشير إلى أهم معالجاته في المجال الفكري والثقافي لإبراز الخطوط العامة لتوجهاته ومنهجه، والتعرف على أهم الملامح التي انطلق منها للدفاع عن الدين واللغة والكلمة المكتوبة.

أولًا: العقيدة والشريعة

في كثير من كتبه ورسائله التي كان يخصصها للشباب، وللقراء البسطاء؛ كان يخصص أنور الجندي مساحة مهمة لبيان مفهوم الإيمان والتوحيد، وأهمية تطبيق الشريعة في السلوك الفردي والجماعي للأمة الإسلامية.

فالعقيدة الإسلامية تقوم على التوحيد، وهو الإيمان بالله الواحد الأحد المتفرد بالخلق والتدبير، والإيمان برسله وكتبه وملائكته واليوم الآخر، والإيمان بالبعث والجزاء والغيب والقضاء والقدر؛ ليتم إيمان المسلم. (معلمة الإسلام، ٣، الإيمان، ص ٣).

فكرة الأمن

والإيمان عقيدة وعمل، دعامته التصديق بالقلب، والعمل بالجوارح، وهو شهادة باللسان وعمل بالأركان، ولا يتحقق الإيمان إلا بالسلوك والعمل، ويكون ارتباط الإيمان وتمامه بالأعمال (السابق، ص ٤). والإيمان هو الثقة المطلقة

بشخص أو بقول مضمون الصدق، وهو الإيمان بالله والنبي والقرآن، وقد ارتبط الإيمان بفكرة الأمن: " فأي الفريقين أحق بالأمن ؟"(سورة الأنعام: ٨١)، و» الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون» (الأنعام: ٨٢)، فالإيمان تأمين الإنسان بمصدر وجوده، ومن الحرمان من رحمته، والإيمان لا يتجزأ فهو الإيمان بالحق كله: الإيمان بوجود الله خالق هذا العالم وبكل ماله من صفات الكمال.. (السابق، ص ٥وما بعدها).

وعلى هذا فالإلحاد مثله مثل سائر أنواع الشر طارئ على النفس البشرية، وليس من طبيعتها ولا هو متأصل فيها. وقد كشفت الدراسات العلمية عن طبيعة النفس البشرية وتدينها وحاجتها إلى الدين والتماسها لربها وخالقها. (انظر السابق، ص٢٤).

نظام الحياة

لذا فالتوحيد أساس عقيدة المسلم، والإيمان بالواحد الأحد ضرورة إنسانية في حياة المسلم، وما جاء به الوحي من تشريع وتوجيه للحياة الإسلامية هو أساس الحركة والعمل في المجتمع المسلم، والذين يتصورون أن الإسلام مجرد صلة بين العبد وربه لا يتعداها إلى نظام الحياة مخطئون. وقد فصل أنور الجندي هذه المسألة تفصيلًا شافيًا في كتابه «الإسلام.. نظام مجتمع ومنهج حياة « فمن العقيدة الراسخة ينطلق المسلم إلى العبادات المؤثرة في بناء الإنسان أبلغ الأثر والدافعة له نحو الأخوة الإنسانية التي افتقدتها الدساتير العالمية، ومن العبادة يكون الدستور الداخلي لأمة الإسلام، في نظامها السياسي والاقتصادي المتقدم الذي يتفوق على كل تشريعات الأرض.

ومن تلك الأصول ينبلج النظام السياسي الخارجي لأمة الإسلام، فيُعجِز العالم كله بأخلاقه السامية، من خلال تقديم نموذج خير أمة أخرجت للناس.

وقد شهد للشريعة الإسلامية كل المنصفين من رجال القانون في العالم كله، واعترفت المؤتمرات العالمية مرات متوالية بصلاحية الشريعة للتقنين البشري الشامل، وأن ما حوته من قواعد في الزواج والطلاق والنسب والميراث والوقف والوصية والتجارة والبيع ومختلف العقود والحدود الجنائية وغيرها؛ يمثل نظامًا قانونيًّا يعدل أرقى الشرائع، ويفضل ما يقابله من نظم في أحدث الشرائع.

أصول إسلامية

وقد كشف الباحثون من مسلمين وغربيين عن عدد من النظريات التي استعان بها القانون الغربي الوضعي في حل كثير من المشكلات والمعضلات، ومنها نظرية التعسف في استعمال الحق ونظرية الحوادث الطارئة.

وقد اضطرت كثير من الأنظمة الرأسمالية والماركسية في مجالاتها المختلفة: سياسية واجتماعية والاقتصادية؛ أن ترجع إلى أصول من الشريعة الإسلامية، فتأخذ بها مثل فكرة الملكية الخاصة في الماركسية، وتعدد الزوجات وحق الطلاق وقضاء المظالم (القضاء الإداري) في النظم الديمقراطية.

كما انكشف زيف الادعاء بأن الشريعة الإسلامية ذات صلة بالفقه الروماني، وأن المسلمين ليس لهم فكر سياسي أصيل.

إن القانون الأول في العصر الحديث الذي وضعه نابليون؛ استمد مادة وافرة من مذهب الإمام مالك حملها الفرنسيون مع غيرها وهم عائدون من حملتهم الدموية على مصر. لقد غضوا الطرف تمامًا عن الحدود والعقوبات الإسلامية وهي مناط الشريعة الحقيقي الذي أريد به حماية الشخصية الإنسانية والمجتمع من الانحلال والاضطراب والتمزق؛ ولذلك فقد عانوا ولا يزالون نتيجة ذلك القصور وتحكيم الأهواء.

ومن المؤسف أن المسلمين نتيجة ضعفهم خضعوا لسطوة الغرب الذي فرض عليهم قوانينه ونظمه، وأوقف النظام الإسلامي في مختلف مجالات السياسة والاجتماع والاقتصاد.

اعتراف منصف

لقد اعترف كثير من الباحثين المنصفين بعظمة النظام الإسلامي ومكانته وآثاره التاريخية بعد أن طمس هذا الحق طويلًا. ومن ذلك ما اعترف به الكاتب الراحل المهتدي «روجيه جارودي» في فترته الماركسية حين قال:

«إن المتأمل في الدور الذي يلعبه الدين، وبخاصة الدين الإسلامي في حركات التحرر الوطني يقود غير المؤمنين في الواقع إلى إعادة التفكير بروح العصر في مشكلة طبيعة الدين ودوره في عصرنا، ونقطة الانطلاق في هذا التفكير أن الصيغة المشهورة (الدين أفيون الشعوب) التي يراها بعضهم خلاصة المفهوم الماركسي للدين؛ لا يمكن تفسيرها بأنها تعريف للدين، فهذه الصيغة تلخص خبرة واقعة في مرحلة تاريخية محدودة ومجال جغرافي محدد، ومن ثم فالقصة القائلة بأن الدين في كل الأزمنة وكل الأمكنة يصرف الإنسان عن النضال وعن العمل؛ يتناقض تناقضًا صارخًا مع الواقع التاريخي.

لقد لعبت الحركات الدينية دورًا تحريريًّا ضد الاستعمار، وأن الإرهاصات الأولى للنضال الوطني كانت باسم الله قبل أن تكون باسم الوطن، ولقد كان الانتماء إلى الإسلام في الجزائر في القرن التاسع عشر بمثابة احتجاج ضد السيطرة الاستعمارية، مما يدل على أن الإسلام بعيد كل البعد عن قيادة الإنسان إلى القدرية وعدم المبالاة بالحياة الاجتماعية، بل في إمكانه أن يكون خميرة للفعل والنضال[1]...

(1) راجع: أنور الجندي، الإسلامية نظام مجتمع ومنهج حياة، دار الاعتصام، القاهرة، ١٣٩٩ هـ =١٩٧٩م، ص ٢٨٣ – ٢٦، الأهرام، ٢٥ / ١١ / ١٩٦٩م

الصحوة الإسلامية

ويربط أنور الجندي العقيدة الإسلامية والنظام الإسلامي بحركة الصحوة الإسلامية التي سطعت عقب هزيمة ١٩٦٧، بوصفها حلقة من حلقات حركة اليقظة الإسلامية التي قادها الأبرار والمصلحون، فأعادت مفهوم الإسلام الأصيل دينًا ودولة ومنهج حياة ونظام مجتمع، مما يؤكد قدرته على الانبعاث من داخله إبَّان الأزمات، ومن خلال التحديات لوضع الأمة على الطريق الصحيح.

ولقد تنبه أنور الجندي إلى أن الغرب يحاول أن يفرض مفهومًا للإسلام مختلفًا عن مفهومه الحقيقي، ويلحظ ذلك في محاولات مجموعة من الكتاب المتغرّبين لصياغة مفاهيم تزيف مفهوم الإسلام الأصيل الجامع بالاعتماد على نصوص مبتورة ومجتزأة من هنا وهناك؛ لنفي فكرة الإسلام الأصيل الجامع الذي يشكل منهج حياة ونظام مجتمع، وإثبات أنه دين لاهوتي لا علاقة له بالحياة على النحو الذي عرفت به المسيحية في الغرب، والترويج لمقولات المستشرق «مرجليوث» وبعض تلاميذه في مصر التي تعزّز هذا الاتجاه.

ويعلم الغرب أن في إقامة النظام الإسلامي خطر عليه، فضلًا عن أن هذا النظام يعارض الاتجاه الغربي الربوي الاستهلاكي المسرف المندفع نحو الترف والكماليات والانحلال والإباحيات؛ لذا يعمل النفوذ الغربي على إخضاع الفكر الإسلامي تحت مسمى المرونة وقبول الواقع والرخص لينصهر المسلمون في أتون الحضارة المادية الوثنية الإباحية، مع إنهاء مفهوم الإسلام الأصيل للحضارة الإنسانية القائمة على وحدة البشرية والأخوة والعدل والرحمة.

المفهوم الربّاني

إن مهمة الدعاة والمفكرين هي إعادة المفهوم الأصيل للإسلام المستمد من القرآن والسنة. إنه المفهوم الربّاني الذي يحتاج رعاته إلى الصبر الطويل والمرابطة بلا كلل ولا ملل؛ حتى يبرز الجوهر النضير صافيًا برّاقًا متألقًا، وحتى تستمر الرسالة

الخالدة قائمة وممتدة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها[1].

ولا شك أن منهج المعرفة الإسلامي يساعد على نجاح مهمة الدعاة والمفكرين في استعادة المفهوم الرباني للإسلام، فهذا المنهج الراسخ الجامع الوسط يقوم على أساس التوحيد، ويجمع بين قوى الحواس والعقل، والوجدان والروح، ويربط بين السمع والبصر، والبصيرة والعقل، ويقوم منارًا سامقًا يهدي الإنسان والفكر البشري في لجج الشك والإلحاد والوثنية والمادية جميعًا، بينما مناهج المعرفة غير الإسلامية تصطرع وتتضارب ولا تنتج ثمارًا ذات مذاق جيد.

قدم الإسلام إلى البشرية المنهج العلمي التجريبي الذي صاغ الحضارة الحديثة واشتقه المسلمون أساسًا من دعوة القرآن الكريم إلى النظر في الكون « قل انظروا ماذا في السموات والأرض..» (يونس: ١٠١)، ثم هناك سنن الله في الأمم والحضارات والمجتمعات، وأشار إلى ذلك القرآن الكريم في عشرات المواضع « قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل.. « (الروم:٤٢).

المنهج المتكامل

كما قدم الإسلام منهج المعرفة المتكامل ذا الجناحين: المستمد أصلًا من المصادر الأولية الأساسية: الفطرة والعقل والقلب والوحي. هذا المنهج القائم على المادة والروح والعقل والقلب[2].

إن الإسلام منهج رباني جامع، يعمل على بناء الفرد والأسرة والجماعة على أساس الإيمان بالله، وعلى أساس التكامل والتضامن والعدل والرحمة والإخاء الإنساني، وهو دعوة إلى بناء مجتمع ومنهج حياة يتم إسعاد البشرية، وهو مختلف تمامًا عن المناهج والأيديولوجيات التي قدمها الإنسان لنفسه وما زالت تضطرب

(1) راجع: أنور الجندي، الصحوة الإسلامية.. منطلق الأصالة وإعادة بناء الأمة على طريق الله، دار الاعتصام، القاهرة، د. ت. ص ٢٠ – ٢٣

(2) أنور الجندي، منهج المعرفة، معلمة الإسلام– ٢، دار الاعتصام، القاهرة، د. ت. ص ١ – ٣

وتتخبط ولا تحقق للبشرية شيئًا إيجابيًّا كما نرى في الحياة المأزومة التي يعيشها العالم المادي لأنها خلت من التواصل مع الله والارتباط به والتماس منهجه وعجزت عن تحقيق الأمن للناس. لقد فصلت المناهج البشرية بين الروح والمادة، وبين السياسة والأخلاق، وبين الدنيا والآخرة فعاشت المجتمعات في اضطراب وتخبط ودفعت ثمنًا غاليًا لاستقرارها وأمنها[1].

علينا أن نعرف الفوارق العميقة بين الإسلام والنحل المختلفة، ويجب أن يكون واضحًا في أذهاننا موقف الإسلام من الأمور المتشابهات فيما أحدثت الحضارة من فعاليات اجتماعية خاصة في الآداب والفنون، وعلاقات الرجل والمرأة، ووسائل التسلية والترفيه، وهو ما يحتم علينا أن نحافظ على ذاتيتنا الإسلامية المتميزة عن بقية الأمم فنحن مسئولون عن أمانة تبليغ الإسلام حتى يرث الله الأرض ومن عليها، ومن واجباتنا تحرير القضايا في ضوء الإسلام وتصحيح المفاهيم من خلاله، والوعي بالقانون الأساسي لحركة المسلم وهو قانون مترابط بين الثوابت والمتغيرات. بين القيم الأساسية التي جاء بها الإسلام وبين متغيرات البيئات والعصور[2].

ثانيًا: اللغة العربية

تحظى اللغة العربية باهتمام رئيس في كتابات أنور الجندي، بل هي الشغل الشاغل له في كثير من كتبه ومقالاته وأحاديثه الصحفية والأدبية، وقد خصص مساحة كبيرة في كتبه ومقالاته للتعريف باللغة العربية والإشادة بمزاياها بوصفها لغة القرآن الكريم، بالإضافة إلى رد الشبهات التي تثار حولها بالدليل والبرهان.

وفي إجابته على سؤال صحفي لصلاح رشيد بتاريخ الأحد ٠٩/ ٠٣/ ٢٠٠٣ حول أهم

(1) أنور الجندي، أقدم لك الإسلام، سلسة في دائرة الضوء ٤٧، دار الاعتصام، القاهرة، د. ت. ص ٨ وما بعدها

(2) السابق، ص ٢٢ وما بعدها

القضايا الثقافية التي يجب أن تكون الشغل الشاغل لأدبائنا ومثقفينا في الوقت الراهن قال:

«على الأدباء والمثقفين عامة أن يدركوا أنهم على بر الأمان، ولا خوف عليهم، ما تمسكوا بالعربية «لغة القرآن» لغة أكثر من ألف مليون مسلم، وليس مائة مليون هم العرب وحدهم؛ لأنه ما تزال قوى التخريب وفلول الاستعمار والأحقاد والغزو الثقافي تطارد اللغة العربية الفصحى مطاردة شديدة، وهناك اتجاه تغريبي يرمي إلى هدم الفصحى وعزلها، والمبالغة في أهمية اللهجات العامية والعناية بدراستها باعتبارها اللغة المستعملة، ولقد اعتقد المسلمون على مدى القرون - واعتقادهم حق - أن لغتهم جزء من حقيقة الإسلام؛ لأنها كانت ترجمانًا لوحي الله ولغة كتابته، ومعجزة لرسوله ولسانًا لدعوته، ثم هذبها الدين بانتشاره وخلدها القرآن بخلوده، والقرآن لا يسمى قرآنًا إلا بها، والصلاة لا تكون إلا بها، فلكل لغة منهجها الفكري القائم على معانيها ومضامينها».

الفصحى لغة القرآن

ولعل أبرز ما كتبه حول اللغة، ويمثل أهمية كبيرة هو ما تضمنه كتابه «الفصحى لغة القرآن» ضمن موسوعاته الكبرى التي خصصها لخدمة اللغة العربية والفكر الإسلامي. وفي هذا الكتاب الذي يعد الجزء العاشر من الموسوعة الإسلامية العربية، يتناول بإسهاب تاريخ اللغة العربية وخصائصها وارتباطها بالإسلام وعلاقاتها بغيرها من اللغات والأفكار والحضارات من خلال تفاصيل متشعبة. ومن خلال كتابين داخليين أولهما اللغة العربية لغة القرآن، والآخر هو اللغة العربية في مواجهة التحديات؛ يرصد أنور الجندي حركة اللغة العربية وقدرتها على التفاعل عبر التاريخ، ومواجهة اللغات الأخرى والتأثير فيها.

في الكتاب الأول ثلاثة أبواب تتناول تاريخ اللغة العربية منذ ما قبل الإسلام حتى نزول القرآن الكريم وانتشار الدين الحنيف، وتأثيرها في اللغات المعاصرة

لنمو الإسلام في: مصر وإيران والبلاد التركية والهند وجنوب شرق آسيا، بالإضافة إلى أثرها في الإسبانية والفرنسية والإيطالية والإنجليزية.

أما الكتاب الثاني، فيتكون من ثلاثة أبواب أيضًا، ويرصد من خلالها محاولات مقاومة نمو اللغة العربية وتوسعها، والحرب عليها والدعوة إلى العاميات، ودور الإستشراق في مقاومة الفصحى.

ويتوقف عند محاولات هدم قيم الفصحى ومفاهيمها من خلال بدعة إصلاح اللغة وإثارة الشبهات حولها، ويتعرض لما يقوله أعداء اللغة ودعاواهم المزيفة. ويعرض للتحديات التي تواجه الفصحى وقبولها هذه التحديات من خلال الفكر واللغات الأخرى والعروبة والمستقبل.

ويلحق أنور الجندي في نهاية كتابه الموسوعي فصلًا يثبت فيه مجموعة من آراء أشهر المستشرقين الذين تعاملوا مع اللغة العربية وتعرّفوا على كنوزها الأدبية والفكرية.

خصائص الفصحى

ولعل أفضل جزء في هذا الكتاب هو المدخل الذي أوقفه على تناول خصائص الفصحى التي يحصرها في ثماني عشرة خصيصة تكشف عن دقّتها وثرائها وتميّزها عن اللغات الأخرى، ويشير أنور الجندي في البداية إلى ما يشكل الخصيصة الأولى وهي أقوال بعض العلماء القدامى عن لغتنا الجميلة.

يقول الخليل بن أحمد في كتابه «العين»: إن عدد أبنية كلام العرب المستعمل والمهمل يبلغ ١٢٣٠٥٤١٢ كلمة، وهو يعني ما يمكن تكوينه بتركيب أحرف الهجاء على كل شكل من الثنائي والثلاثي والرباعي.

ويقول الحسن الزبيدي: إن عدد الألفاظ العربية ٦٦٩٩٤٠٠ لفظًا لا يستعمل منها إلا ٥٦٢٠ لفظًا والباقي مهمل.

ويقول آخرون: إن اللغة العربية تتألف من ثمانين ألف مادة، المستعمل عشرة آلاف فقط، والمهجور منها سبعون ألف مادة لم تستعمل إلى اليوم.

وهذه الإشارات على اختلاف أرقامها وتعدد مصادرها تكشف عن طبيعة اللغة العربية وتاريخها دون حاجة إلى أي قدر من الإشادة أو المبالغة، وهي في مجموعها تعطي صورة الثراء والغنى في الحصيلة، وتكشف عن البعد التاريخي والنمو والحيوية في الوقت نفسه.

أكثر من مليار مسلم

وإذا كانت اللغة العربية هي اللغة القومية لملايين العرب، فإنها لغة الفكر والثقافة والعقيدة لأكثر من مليار مسلم، وهذه هي الخصيصة الثانية؛ حيث لم تتراجع العربية عن كونها لغة عقيدة ودين ولغة مدنية وحضارة في أي أرض دخلتها، كما كانت لغة السياسة والتجارة والعلم والفكر قرابة ألف سنة، وأثرت بوضوح في الفارسية والتركية والهندوستانية والجاوية والمالاوية، وقد بلغت ذلك الاتساع بفضل القرآن والإسلام.

ولم تبق لغة أدبية واحدة – كما يقول «بروكلمان» – لم يصلها شيء من اللسان العربي.

الخصيصة الثالثة تتمثل في أن اللغة العربية لغة اشتقاق تقوم على أبواب الفعل الثلاثي التي لا وجود لها في جميع اللغات الهندية والجرمانية، وهي اللغات التي تكتب بالحروف اللاتينية. وتمتاز العربية بخصائص أكفل بحاجة العلوم.

إن عدد كلمات الفرنسية ٢٥ ألفًا، والإنجليزية مائة ألف، أما العربية فعدد موادها ٤٠٠ ألف مادة، ويحتوي معجم لسان العرب على ١٨٠ ألف مادة.

وفي اللغة العربية حروف لأصوات لا توجد في كثير من اللغات الأخرى مثل الحاء والخاء والضاد والطاء والظاء والعين والغين والقاف.

تعبيرات مختلفة

وتتميز اللغة العربية بتنوع الأساليب والعبارات، وهذه هي الخصيصة الرابعة، ويمكن صياغة المعنى الواحد بتعبيرات مختلفة، كالحقيقة والمجاز والتصريح والكناية، وهي تحسب حساب الفكرة والخاطر والمثال.

ويشير «ريجسير بلاشير» إلى قدرة اللغة العربية على التعبير عن معان ثانوية لا تعرف الشعوب الغربية كيف تعبر عنها. فالفرنسية مثلًا لا تعني إلا بالتعبير الواحد، أما العربية ففيها مذاهب وأساليب تعرب عن مختلف الأساليب الطويلة والقصيرة.

خامس خصائص اللغة العربية كما يرصدها أنور الجندي تقرر أن اللغة العربية أقرب لغات الدنيا إلى قواعد المنطق، فالعربية تكتب كما تقرأ، ومن يتعلم حروفها وحركاتها يمكن أن يقرأ حيثما شاء بدون مشقة. والعرب لم يتركوا شيئًا إلا استنبطوا له اسمًا من لغتهم كالمعدة والهواء والجوهر والشخصي وخسوف القمر وكسوف الشمس والصدى وما إلى ذلك.

والخصيصة السادسة هي أن اللغة العربية ضربت رقمًا قياسيًّا في الكمال؛ حيث تقدمت للفكر بكل المخططات الصوتية الممكنة، وميزت مفاصل الفكر تمييزًا واضحًا مبينًا، وأفاد علم اللغات المقارن أن العربية تعبر بسيكولوجيتها للعلوم الباطنة والظاهرة.

قبول التصريف

وتشير الخصيصة السابعة إلى أن جميع مشتقات اللغة العربية تقبل التصريف إلا فيما ندر، وهذا يجعلها طوع أهلها أكثر من غيرها وأوفى بحاجة المتكلمين.

وإلى جانب غنى العربية بالمفردات فهي غنية بالصيغ النحوية، كما تهتم بربط الجمل، بعضها بعضًا. وصيغ الفعل العربي تبلغ اثنتي عشرة صيغة كل منها تمتاز بمعنى خاص متصل بالمعنى الأصلي للفعل، ولا تحتاج العربية في الجمل الخبرية

إلى ما يسمى في اللغات الغربية فعل الكينونة to be.

والترادف في العربية له أسباب عميقة، وهناك من علماء العربة مثل ابن فارس وابن على الفارسي من ينكر المترادفات أصلًا بوصفها ألفاظًا جديدة لها معان مختلفة. والرازي يوجب تحديد الترادف بعدم التباين في المعنى.

ويستمر الجندي في سرد الخصائص حتى يصل إلى الخصيصة الثامنة عشرة، مما يجعل آخرها يتصل بأولها في نسيج ملتحم من غير أن تذهب معالمها؛ فكلمة كتب نشتق منها كاتب وكتاب ومكتبة ومكتوب، وفيها الحروف الأصلية في كل كلمة، وأيضًا معنى الكتابة موجود في كل منها. على عكس اللغات الأوربية حيث لا يوجد في كثير من الأحيان صلة بين كلمات الأسرة الواحدة. فالإنجليزية فيها write بمعنى كتب، book بمعنى كتاب، و library بمعنى مكتبة، ولا علاقة بين الحروف في الكلمات الثلاث، وهو ما جعل الإنجليزية تختلف من جيل إلى جيل؛ لأنه لا توجد صلة لغوية بين ماضيها وحاضرها. ولغة شكسبير في القرن السابع عشر لا تكاد تفهم عند جمهور المثقفين اليوم، اللهم إلا المتخصصين في الأدب الإنجليزي؛ بسبب اختلاف النطق وتطوره من جيل إلى جيل، وإلى نمو اللغة بطريقة غير طريقة الاشتقاق العربي، وانقطاع الصلة بين كلمات الأسرة الواحدة قي غالب الأحيان[1].

الإسلام سند مهم

وفي سياق إنصاف اللغة العربية والإشادة بها وإبراز معطياتها وغناها، يستشهد أنور الجندي بكثير من آراء المستشرقين والغربيين الذين درسوها، وسبروا غورها، واطلعوا على كنوزها، على سبيل المثال يورد هذا الرأي للمستشرق المجري عبد الكريم جرمانوس الذي يربط بين العربية والإسلام، فيقول:

(1) راجع: أنور الجندي، الفصحى لغة القرآن، دار الكتاب اللبناني، ومكتبة المدرسة، بيروت، ١٤٠٢هـ = ١٩٨٢م، ص ٧ - ١٧

« إنّ في الإسلام سندًا مهمًّا للغة العربية أبقى على روعتها وخلودها فلم تنل منها الأجيال المتعاقبة على نقيض ما حدث للغات القديمة المماثلة، كاللاتينية حيث انزوت تمامًا بين جدران المعابد.

ولقد كان للإسلام قوة تحويل جارفة أثرت في الشعوب التي اعتنقته حديثًا، وكان لأسلوب القرآن الكريم أثر عميق في خيال هذه الشعوب فاقتبست آلافًا من الكلمات العربية ازدانت بها لغاتها الأصلية فازدادت قوةً ونماءً.

والعنصر الثاني الذي أبقى على اللغة العربية هو مرونتها التي لا تُبارى؛ فالألماني المعاصر مثلًا لا يستطيع أن يفهم كلمةً واحدةً من اللهجة التي كان يتحدث بها أجداده منذ ألف سنة، بينما العرب المحدثون يستطيعون فهم آداب لغتهم التي كتبت في الجاهلية قبل الإسلام»[1].

يسّرناه بلسانك

كما يورد رأي جوستاف جرونيباوم الذي يتكلم عن منزلة اللغة العربية وسعتها ودقتها ويسرها وخصائصها والنقل إليها؛ حيث يقول:

«عندما أوحى الله رسالته إلى رسوله محمد أنزلها « قرآنًا عربيًّا» والله يقول لنبيّه «فإنما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين وتنذر به قومًا لدًّا»، وما من لغة تستطيع أن تطاول اللغة العربية في شرفها، فهي الوسيلة التي اختيرت لتحمل رسالة الله النهائية، وليست منزلتها الروحية هي وحدها التي تسمو بها على ما أودع الله في سائر اللغات من قوة وبيان، أما السعة فالأمر فيها واضح، ومن يتّبع جميع اللغات لا يجد فيها على ما سمعته لغة تضاهي اللغة العربية، ويُضاف جمال الصوت إلى ثروتها المدهشة في المترادفات.

وتزيّن الدقة ووجازة التعبير لغة العرب، وتمتاز العربية بما ليس له ضريب من

(1) الفصحى لغة القرآن، ص ٣٠١

اليسر في استعمال المجاز، وإن ما بها من كنايات ومجازات واستعارات ليرفعها كثيرًا فوق كل لغة بشرية أخرى، وللغة خصائص جمّة في الأسلوب والنحو ليس من المستطاع أن يكتشف له نظائر في أي لغة أخرى، وهي مع هذه السعة والكثرة أخصر اللغات في إيصال المعاني، وفي النقل إليها، يبيّن ذلك أن الصورة العربية لأيّ مثل أجنبيّ أقصر في جميع الحالات، وقد قال الخفاجي عن أبي داود المطران – وهو عارف باللغتين العربية والسريانية – إنه إذا نقل الألفاظ الحسنة إلى السرياني قبُحت وخسّت، وإذا نُقل الكلام المختار من السرياني إلى العربي ازداد طلاوةً وحسنًا، وإن الفارابي على حقّ حين يبرّر مدحه العربية بأنها من كلام أهل الجنّة، وهو المنزّه بين الألسنة من كل نقيصة، والمعلّى من كل خسيسة، ولسان العرب أوسط الألسنة مذهبًا وأكثرها ألفاظًا»[1].

وهكذا نرى الفصحى لغة القرآن من خلال أنور الجندي في مكانة عالية يجب أن يفخر بها كل عربي بل كل مسلم، وخاصة في وقت غلبت فيه لغات المحتلين والغزاة في كثير من أرجاء العالم الإسلامي، وفي المقابل فهو يطارد العاميات في كثير من المناسبات، ويقيم الدليل على قصورها أمام الفصحى، ولا يبرئ الداعين إلى استخدام العاميات من سوء النية وخبث الدافع.

***

(1) السابق، ص ٣٠٦

ثالثًا: الأدب والنقد

يرتبط الأدب والنقد لدى أنور الجندي بموضوع اللغة العربية ارتباطًا وثيقًا، فاللغة العربية الفصحى - لغة القرآن - تجعل الأديب المسلم أو الناقد المسلم ينحاز إليها انحيازًا كاملًا، فلا يدعو إلى استبدالها، أو التهرب منها، أو التعصب للغة أجنبية أو لهجة عامية، أو نسبة الأدب إلى إقليم جغرافي أو مكاني.

فالأدب العربي وحدة متكاملة تدور في إطار ثقافي مشترك، وقد أجاب أنور الجندي على سؤال صحفي لصلاح رشيد في حديث أشرنا إليه من قبل بتاريخ الأحد ٠٩/ ٠٣/ ٢٠٠٣؛ حول الدعوة إلى إقليمية الأدب أو تقسيمه حسب الإقليم المكاني، مثل الأدب المصري، والأدب السوري، والأدب العراقي، فقال:

«لا شك أن هذه الدعوى غير عربية الفكر أصلًا، ولا منبعثة من صميم تفكيرنا الذي يجري في طريقه الواسع العميق مرتبطًا بالثقافة العربية التي تشكلت خلال أكثر من خمسة عشر قرنًا، ونحن نعلم أن الدعوات التغريبية حريصة على أن تمزق وحدة هذا الفكر بأن تؤجج دعوات إقليمية ضيقة النظرة تتصل بالإقليم أو العنصر أو النحلة القديمة أو القطر، وقد حاول المغرضون إبراز هذه النظرية في إقليمية الأدب على أساس أن لكل إقليم طابعه الخاص، وأن الأمة العربية هي خلق غير تام التجانس، لكن هذه الدعاوى دائمًا تبوء بالفشل والاندثار؛ لأنها دعاوى مستوردة ودخيلة وليست نابعة من الوجدان العربي، كما أن وحدة الأدب العربي متمثلة في المشاعر والأهداف والمعاني ومواجهة الأحداث، وأنه ليست هناك فروق أساس

بين الأقطار العربية، وإن كانت هناك فروق في الفروع، والأدب العربي قد حافظ على وحدته، وطابعه الشامل في مختلف العصور في أحلك فترات الضعف».

مهمة الدعاة

يرى أنور الجندي أن مهمة الكاتب المسلم- والأديب في المقدمة - جزء من مهمة الدعاة إلى الله في تحرير الشخصية الإسلامية من التبعية بكل صورها وألوانها وتأسيس مدارس واتجاهات إسلامية تستوعب العلوم الحديثة وتُفْرغها في قالب إسلامي، وتعمل على تأصيل الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية.

ولذا فإن عقيدة الكاتب المسلم تقتضي منه أن يرفض التطور على حساب الأصالة والتقدم أو على حساب التفريط في الجذور والقيم الإسلامية، أو يقبل الازدهار المادي على حساب التضحية بالقيم العليا. فالإسلام لا يُخْضع مفاهيمه لأهواء الأمم الأخرى ومنجزاتها المادية أو المعنوية، لسبب بسيط وهو أنه يملك تراثًا أو ميراثًا أفضل مما عند الآخرين، ومتصل الحلقات في إطار جامع متكامل مرتبط بالله.

وعلينا في مجال الأدب والفكر أن نتذكر أن الفكر الغربي محاصر الآن بثلاث نظريات: هي النظرية المادية والدوافع الاقتصادية والدوافع الجنسية وأهواء الوجودية، وكلها تحتقر الإنسان احتقارًا شديدًا، وهناك الجبرية التي تريد أن تخلى الإنسان من المسئولية الفردية وتلقي بها على المجتمعات.

تحديات خطيرة:

على الكاتب المسلم أن يواجه ثلاثة تحديات خطيرة في المجتمع المسلم، وهي:

الأول: التحدي المنبعث من واقع المسلمين متمثلًا في الجمود والجبرية وكتب الخرافات.

الثاني: التحدي المنبعث من الغزو الفكري والتغريب والشعوبية.

الثالث: التحدي المنبعث من الهزيمة النفسية إزاء إباحيات المدنية الغربية.

وهذه التحديات تجعل الكاتب المسلم يؤمن أن هدف التغريب الذي يعمل على خدمة النفوذ الأجنبي والشيوعية والصهيونية؛ هو هزيمة العقل الإسلامي بإذاعة الإلحاد ونشر الإباحية وخلق مركب نقص في أعماقنا يشعرنا بالهزيمة إزاء حضارته المادية[1].

وبالنسبة للأدب العربي فإن خصائصه التي تميزه عن الآداب العالمية المختلفة في الشرق والغرب ترجع إلى البيئة التي نشأ فيها والفكر الذي تشكل في إطاره والتحديات التي واجهته في طريق مساره الطويل. وأعطى القرآن الكريم الأدب العربي العامل الأعظم في ثباته وظهور فنونه وعلومه ومناهجه، وهو الذي أغنى العربية بالأساليب والمضامين[2].

إنسانية الأدب العربي:

وينطلق الأدب العربي من نقطة أساسية وهي إنسانيته وطوابعه القائمة على الحق والخير والعدل؛ لأنه يستمد مفاهيمه من الفكر الإسلامي الذي يعد القرآن الكريم قاعدته الأصيلة، وبقي حريصًا على ألا يجنح عن أرض الواقع الصلبة، ولم يهمل القضايا الحيوية، ولكنه في مرحلة من مراحله بالآثار الواردة من الآداب القديمة والدخيلة، فاضطرب أمره حينًا ثم عاد إلى أصالته.

لقد كان الأدب العربي قادرًا على مغالبة أمرين: الأسطورية والخيال المغرق، والإشراقية، وهي طوابع وفدت إلى الأدب العربي من الآداب الفارسية والهندية وغيرها، وكان الأدب العربي في واقعيته وارتباطه بالطابع الفعلي والحياة؛ أقرب إلى مفهوم الإسلام وجوهره.

(1) راجع: أنور الجندي، عقيدة الكاتب المسلم، سلسلة دائرة الضوء - ٤٥، دار الاعتصام، القاهرة، د. ت، ص ٥ - ١٢

(2) أنور الجندي، عقبات في طريق النهضة، دار الاعتصام، القاهرة، د. ت. ص٣٠٤

ويمكن القول إن الأدب العربي انحرف في مجالين:

مجال الشعر؛ حيث أخرجه الشعراء الفرس الذين تأثروا بالمجوسية من أمثال بشار بن برد وأبي نواس والضحاك، فأخرجوه من مفهومه الأصيل وانحرفوا به نحو الغزل الحسي والخمريات والغلمانيات، وهو تيار بدا غريبًا ودخيلًا ومدموغًا بالاتهام.

المجال الآخر، مجال النثر: الذي انحرف إلى السجع والمحسنات البديعية والمقامات، وأسرف في ذلك إسرافًا انصرف به عن طبيعته الأصيلة[1].

لقد كان للقرآن الكريم نظرته إلى الشعر والشعراء، محررًا إياهم من الغرور والوثنية ومفاهيم الجاهلية، وفي خلال ذلك نشأ أدب واسع الآفاق تبنته كتب السنة والشريعة والعلوم والتربية والتصوف[2].

العزل عن التراث:

وقد تسلّطت مدرسة النقد الغربي على الأدب العربي الحديث لتعزله عن تراثه الضخم، مقابل إعلاء شعر المجون وتوسيع دائرته، وحاولت الحكم على العهود الإسلامية من خلال هذا الشعر وشعرائه.

كما حاول التغريب والغزو الثقافي إخراج الأدب العربي من مضمونه الخلقي الذي لا ينفصل عنه، ودفعه إلى الانصهار في مفهوم الآداب العالمية دون أن تدرك أنه يستحيل تذويب آداب الأمم وثقافاتها في آداب الأمم الأخرى؛ لأنها تستمد وجودها وكيانها من النفس والذات والمزاج الخاص[3].

---

(1) انظر: أنور الجندي، الشبهات والأخطاء في الفكر الإسلامي، دار الاعتصام، القاهرة، د. ت. ص ١٦٥ وما بعدها

(2) السابق، ص ١٦٦

(3) السابق، ص ١٦٦ - ١٦٧

الفن للفن:

وكان من أبرز ما دعا إليه النقد الغربي تحرير الأدب من طابع الأخلاق ودفعه إلى تصوير الغرائز والأهواء في غير ما قيد باسم حرية الأدب التي أطلق عليه مصطلح «الفن للفن»، وقد استهدفت هذه الدعوة الاستخفاف بالقيم الخلقية، وغمز كل ما يتصل بالعقائد الدينية والسخرية من الفضائل والبطولات والجرأة على المقدسات[1].

لقد ظل المجتمع الإسلامي طوال حلقات تاريخه مرتبطًا بمقومات وقيم ذات طابع خلقي في مختلف مجالات العلاقة بين المرأة والرجل، والأفراد وبعضهم بعضًا في السياسة والتجارة والعمل[2].

لذا جاءت النزعة إلى الإباحية في الأدب أو الإباحة كما يسميها محمد فريد وجدي، نقيضًا لطبيعة الأدب بالمفهوم الإسلامي، وقد عرفها العرب والمسلمون في العصر العباسي في ظل تحديات خطيرة؛ حيث اضطربت معايير الفكر وتطبيق الشريعة الإسلامية، بسبب الترف العاصف وطوابع التسري وأسواق الجواري، وغير ذلك مما كان مخالفًا لمفهوم الإسلام نفسه، وكان رد الفعل على ذلك قويًّا بظهور الزهادة والتصوف الفلسفي ومذاهب الباطنية وغيرها.

ولا ريب أن الفكر الإسلامي الأصيل يعتمد على الضوابط إلى جوار الحريات في موازنة معتدلة للكيان الإنساني، وهناك عدد من الباحثين الغربيين يؤمنون أن كل فكرة فنية لا تستقيم مع الشعور الديني تخرج من إطار الأدب الأصيل (تأمل تولستوي على سبيل المثال)؛ لأن من شأن الفن أن يُعْلي من أمر الإنسان ويسمو به، ليقيم الناس صلات المودة والإخاء، وتندفع البشرية نحو الوصول إلى الإنسانية[3].

(1) نفسه، ١٦٧ – ١٦٨، وعقبات في طريق النهضة، ص ٣٠٦

(2) الشبهات والأخطاء في الفكر الإسلامي، ص ١٦٨

(3) انظر: السابق، ص ١٦٨

الأدب والأخلاق:

وهنا تبدو قضية الأخلاق والأدب ذات حضور مهم في السياق التعبير الأدبي؛ حيث يرى بعض النقاد المتأثرين بالغرب أن هناك تعارضًا بينهما، ولكن المفهوم الإسلامي لا يرى ذلك، فليس هناك تعارض بين الأدب والأخلاق، أو الفن والدين، بل هناك تطابق واتفاق، مثل ذلك التطابق بين العلم والدين، يقول محمد أحمد الغمراوي:» إن للفطرة كلها مُنشئٌ واحدٌ هو الله. والعلم والدين كلاهما اجتمعا على استحالة التناقض في الفطرة، فإذا كانت هذه الفنون من روح الفطرة وجب ألَّا تخالف أو تناقض دين الفطرة، ودين الإسلام في شيء، فإذا خالفته في أصوله ودعت صراحة أو ضمنًا إلى رذيلة من أمهات الرذائل التي جاء الدين لدفعها عن الإنسان حتى يبلغ ما قدر له من الرقي في النفس والروح، وإذا خالفت الفنون الدين في شيء من هذا؛ فهي بالصورة التي تخالف بها الدين فنونٌ قد جانبت الحق ودابرت الخير وأخطأت الفطرة التي فطر الله الناس عليها والخلق؛ ولذا فالأدب المكشوف المستورد الغربي الأصل، يبدو وافدًا غريبًا لا جذور له ولا أصالة، لأنه معارض للمزاج والذوق والفطرة جميعًا[1].

وهناك شبهة تتردد كثيرًا بأن الأدب العربي القديم قد عرف الأدب المكشوف، وهذا صحيح لكنه كان نتيجة غزو شعوبي على النحو الذي يجري اليوم باسم الغزو التغريبي، وقد دخل هذا اللون على أيدي المتصلين بالثقافات والديانات والفلسفات القديمة السابقة على الإسلام، وفي مقدمتها وثنية اليونان ومجوسية الفرس وفلسفات الهند[2].

التجديد الأدبي:

وتمثل قضية التجديد الأدبي أو التجديد في الأدب محورًا مهمًّا من محاور رؤية أنور الجندي للأدب العربي الإسلامي، وهو يؤمن بضرورة التجديد، ولكنه

(1) نفسه، ص ١٦٩

(2) نفسه، ص ١٦٩ – ١٧٠

التجديد القائم على أساس ما نملكه من تراث وتقاليد أدبية، أما التجديد المبتور عن التراث والماضي فلا يعده تجديدًا بل تقويضًا لأدبنا ومعطياته وقيمه.

ولذا يرى أنور الجندي أن الدعوة الحقة إلى النهضة حين تسعى إلى التجديد لا تفصله عن القديم، ولا تعزله عن الماضي، بل تجعل من الماضي سبيلًا إلى الجديد، ومن التطور رابطة بين القديم والحديث. والغربيون أنفسهم الذين يلتمس بعض الكتاب منهجهم؛ إنما يفهمون التجديد على هذا النحو، فلا انفصال بين القديم والحديث، أو بين الأصالة والتجديد، أو بين الماضي والحاضر. فالأسس والأرض والجذور كلها معالم طبيعية لكل حركة تدعو إلى التجديد[1].

وفي هذا السياق يستدعي أنور الجندي رؤية مصطفى صادق الرافعي للتجديد، وهي رؤية تقوم على قاعدتين:

الأولى: إبداع الحي في آثاره بفكره بما يخلق من الصور الجديدة في اللغة والبيان.

الأخرى: إبداع الحي في آثار الميت بما يتناولها من مذاهب النقد المستحدثة وآثار الفن الجديدة، وفي الإبداع الأول إيجاد ما لم يوجد، وفي الثاني إتمام ما لم يتم، فلا جرم كانت منهما معًا حقيقة التجديد بكل معانيها ولا تجديد إلا ثمة، فلا جديد إلا مع القديم[2].

ولا شك أن قانون التجديد قانون طبيعي، وقانون ثابت، فإذا لم يكن تجديد فتدهور وانحطاط، وهو في الفكر شأنه في الكائنات الحية، بيد أن له أصوله ومقوماته وقواعده، فهو لا ينفصل عن أرضيته وقاعدته، ولا ينقطع عن تطوره الطبيعي[3].

(1) السابق، ص ١٧١ - ١٧٢

(2) نفسه، ص ١٧٢

(3) الشبهات والأخطاء في الفكر الإسلامي، ص ١٧٢

الفنون الأدبية

يبدو أنور الجندي حريصًا على الفنون الموروثة أكثر من الفنون المكتسبة التي تركت صورة سلبية في ذهنه وتفكيره، فهو مع الشعر الموزون المقفى، وليس مع الشعر الحر أو ما يسمى بشعر التفعيلة، ويلاحظ أنه لم يدرك ذلك اللون الذي يسميه أصحابه قصيدة النثر، وهي كلام غير موزون وغير مُقفى، وتأتي معظم نماذجه في سياق سريالي يصعب فهمه، وتروج له جهات عديدة وتنشره في منابر ذات تأثير واسع.

أما شعر العامية فمرفوض لدى الجندي؛ لأنه يمثل مرحلة من مراحل التآمر على الفصحى، ومحاولة الحلول مكان الشعر العربي الموروث.

ويأخذ الرجل من القصة والرواية موقفًا سلبيًّا للغاية، مع أنه كتب في مطلع شبابه رواية ونشرها وعالج من خلالها موضوعًا وطنيًّا.

ولا نكاد نجد له اهتمامًا يُذكر بفكرة المسرح إلا من خلال انتقاده لبعض المسرحيات التي حملت مضمونًا معينًا، مثل مسرحية الحسين لعبد الرحمن الشرقاوي.

وإلى شيء من التفصيل حول هذه القضايا..

أولًا: الشعر الحر أو التفعيلي:

يرى أنور الجندي أن ظهور الشعر الحر كان ثمرة من ثمار استيراد النظريات النقدية الغربية الحديثة في ظروف تمكنت فيها جماعات الشعوبيين والتغريبيين من تصدّر أغلب مؤسسات الفكر والثقافة والأدب والصحافة؛ وذلك بهدف إخراج الأدب العربي من أصالته و«كسر عمود الشعر» وفقًا لتسمية لويس عوض. وتعد محاولات الشعر الحر واحدة من محاولات قديمة جرى عليها بعض الشعراء، ولكن «الطقس» الذي وضع فيه الأدب العربي تحت سيطرة الشعوبيين اللبنانيين والماركسيين والتغريبيين من خلال الصحافة وإغراء بعض الشعراء بتغيير أسلوبهم الأصيل تحت مسمّيات المعاصرة والتقدمية والتجديد؛ كان طقسًا مسمومًا.

ولعل فكرة الشعر الحر في نشأتها الأولى كانت مدفوعة بنوايا سليمة تهدف إلى تيسير قواعد النظم أو تمرير بعض الأفكار والمضامين التي تحول بعض الظروف دون إبرازها، بيد أن جماعة الشعوبيين التقطت التجربة ودفعتها إلى الأمام وعمقتها في فترة سمحت للشعوبيين والماركسيين بالسيطرة شبه الكاملة على الصحافة والإعلام.

ومن أبرز معطيات حركة الشعر الحر:

أولا: انفصالها التام عن التراث العربي الإسلامي، والتهويم في آفاق غريبة ليست لها أصالة النظرة الإسلامية العربية العميقة الممتدة.

ثانيًا: الاستهانة بالبيان العربي واللغة العربية والسخرية منهما.

ثالثًا: طابع التمزق والغربة والمأسوية التي لا تصدر إلا عن نفوس لم تعرف الأصالة والإيمان.

رابعًا: استعلاء طابع الرموز والسحر والأساطير القديمة (سومر وبابل وآشور وعشتار)، ما سماه بعض النقاد بأدب الخرائب والأطلال حيث تعوي الذئاب.

خامسًا: إذاعة طابع الشعر الباطني الوثني الذي يتبنى مفاهيم وحدة الوجود والحلول والتقمص والنرفانا، وكلها مفاهيم زائفة.

سادسًا: الاستغراق في الضبابية والرمز والأسطورة بلغة الضياع وغلبة الهلامية والسطحية.

وبصفة عامة يمكن القول إن هذه الظاهرة ليست ظاهرة قوة أو تقدم، ولكنها ظاهرة هزيمة وخضوع لعوامل النكسة والاحتواء والسيطرة الغربية، وقد ظهرت بعد نكبة فلسطين وما لحاها من هزائم شملت البلاد العربية[1].

(1) انظر: أنور الجندي، الشعوبية في الأدب العربي، دار الاعتصام، القاهرة، د. ت. ص ١٨١ - ١٨٤

شعر العامية:

تمثل الدعوة إلى استخدام اللهجات العامية في الكتابة الأدبية عملًا منهجيًّا هدفه إضعاف الفصحى، وضرب الوحدة العربية من خلال الفكر والشعور من خلال الزعم بأن اللغة العربية قاصرة عن مسايرة النهضة العلمية، والادعاء أنها لغة جامدة بفعل انعزال الأمة العربية عن ركب الحضارة العالمية فترة طويلة من الزمن. وأن جرس العامية أفضل من جرس الفصحى، وكلها ادعاءات غير سليمة وغير صحيحة، فالفصحى آصرة وحدة، وجرسها أكثر رقيًّا وشاعرية، ومعجمها يتسع للعلوم والثقافة بكل ألوانها.

لقد فاخر «صلاح جاهين» في بحث له عن شعر العامية المصرية في مؤتمر بلغراد عام ١٩٦٦، وكشف عن حقيقة خطيرة وهي أن وسائل الإعلام آنئذ: الراديو والتلفزيون والصحافة والسينما؛ صارت مسخّرة لنشر العامية والتعبير بها. وفي الوقت نفسه يشير إلى أن بعض النقاد في مصر يرفضون الاعتراف بالشعر العامي، الذي يكتب بلغة الحياة اليومية، كما يرفضون الاعتراف بما يسميه التجديدات التي أدخلها شعراء العامية الفصحى على قوالب الشعر (يقصد الشعر الحر)، بل يرفضون الاعتراف بشعر شاعر كبير مثل زميلي «صلاح عبد الصبور».

لقد انبعثت الدعوة إلى العامية مع الدعوة إلى الشعر الحر في ظل تمدد الموجة الماركسية التغريبية التي سيطرت في الستينيات على الصحافة والسينما والمسرح والإذاعة والتلفزيون، والهدف هو إزاحة اللغة العربية وفنها الأول الجميل، وهو الشعر[1].

ولا شك أن الدعوة إلى العاميات والإعلاء من شأنها تجاوزت فكرة التعبير المحدود أو الوقتي الذي يلبي حاجة محدودة مؤقتة في إطار المطارحات أو الاحتفالات الاجتماعية أو الشعبية ذات الطابع الخاص كما عرفها الناس في بعض

(1) راجع: السابق، ص ٢١٩ وما بعدها

المناسبات التي تحتفي بالزجل والموال والأغاني والتمثيليات إلى محاولة فرضها بديلًا عن الفصحى لغة التعبير العام، وعن الشعر فن العربية الأول، وهو ما ينبئ عن أمر خطير، تشير إليه في أيامنا لغة الصحافة والتلفزة والإذاعات وفنون التعبير المصورة التي هبطت إلى درك سحيق!

القصة والرواية:

القصة فن من فنون الأدب كالشعر وهو فن قديم ومستحدث. وقبل ظهور الإسلام كانت هناك أساطير كثيرة أطلق عليها فيما بعد اسم القصة، وعندما جاء الإسلام ظهر عصر جديد وفهم جديد أسسه القرآن الكريم بعرض عدد من قصص الأولين على نحو خاص متميز يتسم بالصدق والشمول والإيجاز والاستعلاء على التفاصيل، مع التركيز على استخلاص العبرة والتماس حكمة التاريخ ورسم نواميس الحضارات، وقوانين قيام الأمم وسقوطها، وعوامل تطور المجتمعات وانهيارها.

لقد وصف القرآن الكريم قصصه بـ«القصص الحق»، أما القصة في مفهومها الغربي فهي قائمة على الخيال والوهم، وعلى العقدة والحل، وعلى الإسراف في التفاصيل، وانتفاء الصدق، وطوابع الرمز والظلال؛ إنما تجنح بعيدًا عن جوهر النفس العربية البسيطة غير المسرفة.

ويرى أنور الجندي أن الفكر الإسلامي لا يقبل من القصة غير لون واحد، وهو «القصص الحق»؛ ذلك أن الأدب العربي قد اتسم منذ ظهوره وإلى اليوم بخاصية واحدة تتمثل في الصدق والوضوح والإيجاز، وهي عناصر تكاد تكون مضادة للقصة الحديثة بل معارضة لها.

ولا ريب أن أنور الجندي؛ وهو يؤكد على هذا التصور كانت في ذهنه بعض الأعمال القصصية الهابطة التي قامت على كسر المحرمات والاهتمام بالإباحية والترويج للتحلل في العلاقات بين الرجل والمرأة، والمعتقدات، وغير ذلك. مع

أن الرواية الجادة يمكن أن تقوم بدور مهم في المجال العام وتطوير الوعي بالقضايا الإنسانية والخلقية من خلال الواقع والخيال؛ في إطار فني محبّب وشائق.

ولست أدري هل اطلع قبيل رحيله على أعمال نجيب الكيلاني القصصية مثلاً، وقبلها روايات على أحمد باكثير وآخرين؟

ربما لو اطلع عليها لغيَّر رأيه، مع التحفظ على التصور الغربي ومفاهيمه، ودعا إلى توظيف القصة في خدمة الدعوة الإسلامية، ومحاربة الرذائل الاجتماعية والخلقية والسياسية، وبناء الأوطان والدفاع عنها من خلال النماذج الفريدة في الذكاء والعمل والبطولة والشجاعة.

***

obeikandl.com

رابعًا: الشعوبية في الأدب العربي الحديث

هذا موضوع قديم جديد اهتم به أنور الجندي اهتمامًا كبيرًا، وتحدث عنه في مواضع كثيرة من مؤلفاته ومقالاته، ووصل الاهتمام لدرجة أن خصص له كتابًا بأكمله يحمل العنوان عاليه.

وسبب اهتمامه بالموضوع أن الشعوبية- كما يراها - مؤامرة من مؤامرات التغريب والغزو الثقافي تهدف إلى ضرب الأصالة الإسلامية العربية، وانتزاع الأدب العربي من قيمه وأسسه وقوانينه حتى ينفرط عقده، وذلك بمحاولة تغليب أجناس أدبية وافدة، أو انتزاعه من طوابعه، ودفعه إلى سلوك طريق مظلمة مضطربة لتحطيم مسيرته، وقطعه عن خيطه الطويل الممتد وتاريخه المتصل الذي تسلم كل مرحلة فيه إلى مرحلة بعدها.

ويرى أنور الجندي أن الشعوبية في الأدب العربي الحديث تسعى إلى تنصيب بدائل زائفة للأصالة الأدبية العربية الإسلامية من خلال بعض الأدباء والكتاب الذين يكتبون باللغة العربية، وتعبر من خلالهم أفكار وافدة ومقاييس غريبة، وخاصة في مجال القصة المكشوفة أو الأدب المكشوف والشعر الحر والشعر العامي مع ترسيخ الإقليميات والطائفيات المنبتّة عن العروبة والإسلام، فضلًا عن تحطيم اللغة وعمود الشعر.

ما هي الشعوبية؟

ولفظة الشعوبية نسبة غير قياسية إلى لفظة «الشعوب»، وقد ظهرت على استحياء في العصر الأموي، ثم ظهرت سافرة للعيان في أوائل العصر العباسي. وهي حركة فريق من الناس لا يرون للعرب فضلًا على غيرهم، بل يذهبون إلى تنقّصهم والحطّ من قدرهم، حتى ألّفوا في ذلك الكتب، وقد يصل بهم الأمر إلى حدّ تفضيل العجم على العرب. وكانوا أحيانًا يسمون «أهل التسوية»، أي مساواة العرب بغيرهم.

وقد سُمّوا بالشعوبيين لانتصارهم للشعوب التي هي مغايرة للقبائل، فقد قال جمع من المفسرين في قوله تعالى: (يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبًا وقبائل)؛ إن القبائل العرب، والشعوب العجم.

وظهرت الشعوبية في الشعر العربي باكرًا، فافتتحها أحد شعراء العصر الأموي، وهو إسماعيل بن يسار النسائي الذي افتخر بقومه وأمجادهم، وعيّر العرب في جاهليتهم بعاداتهم وطريقة عيشهم، ثم جاء بشار وأبو نواس وآخرون ليواصلوا التعبير عن استعلائهم وكراهيتهم للعرب.

ويذكر عبد السلام هارون محقق كتاب البيان والتبيين للجاحظ، أن الرواة يقولون: إن زياد بن أبيه حين استلحقه معاوية بأبيه وخشي ألا تقرّ العرب له بذلك، صنع كتاب «المثالب» وعدّد نقائص العرب. كما أن النضر بن شميل الحميري وخالد بن سلمة المخزومي وضعا كتابًا في مثالب العرب ومناقبها، بأمر هشام بن عبد الملك، وكان الهيثم بن عدي دعيًّا في نسبه، فصنع كتابًا طعن فيه أشراف العرب. وأما أبو عبيدة، وقد كان أبوه يهوديًّا وكان يعيّر بذلك، فصنع كتابًا في مثالب العرب امتاز بالسعة والاستقصاء. وجاء من بعدهم علان بن الحسن الشعوبي

الوراق الزنديق، فألف لطاهر بن الحسين كتابًا في مثالب العرب، بدأه بمثالب بني هاشم ثم بطون قريش ثم سائر العرب، ولم يعبأ في ذلك بالخروج عن أدب الدين، وقد أجازه طاهر عليه بثلاثين ألف درهمًا. وصنع ابن غرسيه رسالة في تفضيل العجم على العرب. وقد رد عليه علماء الأندلس بعدة رسائل[1]، وقد أورد الأخير نموذجًا لردّ ابن قتيبة على الشعوبية، ولابن الكلبي كتاب في المثالب، منه نسخة عتيقة بدار الكتب المصرية.

الجاحظ والشعوبية

ولعل الجاحظ أبرز من عالج موضوع الشعوبية قديمًا، ورد عليهم في مواضع كثيرة من كتابه الشهير «البيان والتبيين»، ففي أول الجزء الثالث على سبيل المثال بعد أن يعرف بمحتوياته تعريفًا قصيرًا، يقول:

ونبدأ على اسم الله بذكر مذهب الشعوبية ومن يتحلى باسم التسوية (أي يتصف بالتسوية بين العرب والعجم) وبمطاعنهم على خطباء العرب: بأخذ المخصرة عند مناقلة الكلام، ومساجلة الخصوم بالكلام الموزون والمقفى، والمنثور الذي لم يقفّ، وبالأرجاز عند المتْح، وعند مجاثاة الخصْم، وساعة المشاولة وفي نفس المجادلة والمحاورة[2]..

(1) انظر نوادر المخطوطات ١: ٢٢٩ – ٣٣٠، وشرح البكري لأمالي القالي ص ٨٠٨ والخزانة ٢: ٥١٩ وبلوغ الأرب ١: ١٥٩ – ١٨٤

(2) المخصرة: ما اختصر الإنسان بيده فأمسكه، من عصا أو مقرعة أو عكازة، أو ما أشبه ذلك، والمناقلة: مراجعة الكلام في صخب. المتْح: الاستقاء من أعلى البئر. والميْح: الاستقاء من أسفلها، المجاثاة: الجلوس على الركبتين للخصومة. المشاولة: أن يتناول بعضهم بعضًا عند القتال بالرماح). (أبو عثمان عمرو بحر بن الجاحظ، ت: عبد السلام هارون، البيان والتبيين، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٤٠٥هـ = ١٩٨٥م، ص ٣: ٥ – ٦). وانظر مواضع الحديث عن الشعوبية في البيان والتبيين، ١:٣٨٣، ٢: ٥، ٣: ٥، ٢٩، ٣١، ٨٩

علي شريعتي

وفي موسوعة ويكيبديا الإلكترونية؛ يرى المفكر الإسلامي الإيراني علي شريعتي أن الحركة الشعوبية تحولت تدريجيًّا من حركة تسوية إلى حركة تفضيل العجم على العرب، وعملت عبر ترويج المشاعر القومية وإشاعة اليأس من الإسلام إلى ضرب سلطة الخلافة، ويقدم مثالًا بالحركة الصفوية متطرقًا إلى استنادها إلى «الشعوبية» فيقول: «وبغية ترسيخ أفكارها وأهدافها في ضمائر الناس وعجنها مع عقائدهم وإيمانهم عمدت الصفوية إلى إضفاء طابع ديني على عناصر حركتها وجرّها إلى داخل بيت النبي إمعانًا في التضليل؛ ليتمخض عن ذلك المسعى حركة شعوبية شيعية، مستغلة التشيع لكي تضفي على الشعوبية طابعًا روحيًّا ساخنًا ومسحة قداسة دينية، ولم يكن ذلك الهدف الذكي متيسرًا إلا عبر تحويل الدين الإسلامي وشخصية محمد وعلي إلى مذهب عنصري وشخصيات فاشية، تؤمن بأفضلية التراب والدم الإيراني والفارسي منه على وجه الخصوص».

العنصرية والكراهية

وقد اتخذت الحركة الشعوبية من الآداب وسيلة لزرع بذور العنصرية والكراهية في نفوس أبناء الأمة الإسلامية تجاه العرب خاصة والإسلام عامة، وكان الشعر أحد أهم فروع الآداب المستخدمة في هذا الإطار لكونه أكثر التصاقًا في عقول القراء والمستمعين وأسهل حفظًا في الذاكرة. ومن أعمدة الأدب الشعوبي في الفارسية، الفردوسي والخيام وأبي مسلم الخراساني وأبي بكر الخرمي والرودكي ومحمود الغزنوي.

على سبيل المثال، قام محمود الغزنوي في القرن الثالث الهجري بتكليف

الشاعر الشعوبي أبو القاسم الفردوسي بكتابة قصائد شعرية يمجد فيها تاريخ فارس وحضارتها، وقد تعهد له بأن يعطيه وزن ما يكتبه ذهبًا، وعلى هذا الأساس وضع الفردوسي ملحمته وأسماها الشاهنامة (سير الملوك)، ووضع جلها في شتم العرب وتحقيرهم وتمجيد الفرس وملوكهم. ومما يقوله الفردوسي في «الشاهنامة»: «من شرب لبن الإبل وأكل الضب؟ هل بلغ العرب مبلغًا أن يطمحوا في تاج الملك؟ فتبًّا لك أيها الزمان وسحقًا»[1].

أما الشعوبية في الأدب العربي الحديث فتعني:

أولاً: إخراج هذا الأدب عن قيمه الأساسية ورسالته وطبيعته.

ثانيًا: قطعه عن الأدب العربي كله.

ثالثًا: ازدراء ماضي العرب وتاريخهم وتراثهم ومحاولة النظر إليه على أنه غير صالح للانتساب إليه.

رابعًا: فرض مفاهيم وتقاليد وأساليب دخيلة عليه وصبغه بها في محاولة لاحتوائه.

خامسًا: إقامة مناهج وافدة في النقد والتفسير ترمي إلى هدمه والازدراء به[2].

البدائل الزائفة

وكان من أكبر آثار الشعوبية في الأدب العربي الحديث؛ ظهور البدائل الزائفة من خلال مجموعة من الكتاب يكتبون بالعربية لكن وظيفتهم أن يكونوا قناطر

(1) صباح الموسوي، ٢٠٠٣؛ دور الحركة الشعوبية في صنع الفرق الباطنية على كاشف الغطاء، ١٣٦٥هـ؛ الشعوبية في السياسة والتاريخ المنشورة في مجلة الاعتدال

(2) انظر: أنور الجندي، الشعوبية في الأدب العربي الحديث، دار الاعتصام، القاهرة، د. ت. ص ٥

للفكر الوافد، أو أدوات لإدخال الفكر الغربي وتطبيق مقاييسه على المجتمعات الإسلامية وقيمها ونظمها، وكانت آثار هؤلاء قوية وعميقة في مجال اللغة والقومية والأدب والقانون، وأبرزهم دعاة الإقليمية والمصرية التي تقوم على أن يكون الأدب في جميع مصر لمصر، والذين يتخذون من مفهوم القومية في الغرب مفهومًا يمكن تطبيقه على علاقة العروبة بالإسلام، وهم جميعا دعاة فصل لا وصل.

ساطع الحصري: في مجال فصل القومية عن الإسلام.

علي عبد الرازق: في محاولة فصل الدين عن السياسة.

سلامة موسى: في محاولة فصل اللغة العربية عن الفكر الإسلامي.

طه حسين: في محاولة فصل الأدب عن الفكر الإسلامي.

وتهدف الشعوبية في الأدب العربي الحديث بوضوح إلى تدمير النفس العربية، بنقل مفاهيم الغربة والتمزق عن طريق خمريات أبي نواس وبشار، وما افتري به على الخيام، وعن طريق الجنس وكتاباته ومترجماته، وعن طريق الشعر الحر الذي يستهدف إفساد الذائقة العربية، وقد سجل قيام المؤسسة الشعوبية المستشرق الراحل جاك بيرك في تصريح أحدث دويًّا كبيرًا؛ حين قال:

«قامت في بيروت مدرسة (تموز) التي تعمل على التخلص من الفصاحة وتطارد أي نوع من العروبة يشتم منه رائحة التراث، ونضع على رأس هذه المدرسة أدونيس».

أسماء جديدة

لقد وزعت الجماعة الشعوبية نفسها توزيعًا منظمًا على كل خيوط الأدب والفكر والثقافة، وبرزت في السنوات الأخيرة في عنف شديد لتغطي ما حدث من فراغ أدبي بسقوط الأوراق الذابلة التي طواها الخريف من أمثال طه حسين

وسلامة موسى ومحمود عزمي وعلي عبد الرازق وغيرهم، فعملت على تقديم أسماء جديدة[1].

لقد اهتمت الجماعة الشعوبية ببناء الواجهة القادرة على تنفيذ مخططها من خلال الأقلام التي تضعها في الصدارة، عبر سيطرتها على منافذ التعبير والنشر في الصحف والإذاعات والتلفزة والمؤسسات الثقافية التي تملكها السلطة، فلا يسمع صوت غير صوتها، ولا يسمح لأحد سواها برفع صوته، وقد جاء ذلك متوافقًا مع رغبات السلطات المستبدة في أرجاء الوطن العربي التي تعادي بالضرورة فكرة الوجود الفعال للإسلام، وإن كانت تسمح أحيانًا بوجوده الشكلي داخل جدران المساجد، أو من خلال بعض المظاهر التي تنبئ عن وجوده الصوري، الذي لا يتجاوز إلى الفعل والحركة والتأثير !

كانت مدرسة الحزب القومي السوري في لبنان من ركائز هذا العمل، ويمكن القول إنها جمعت الخيوط المختلفة التي كانت متناثرة هنا وهناك، فقد سيطرت جماعة الوميين السوريين الاجتماعيين عن طريق جريدة النهار اللبنانية على الحركة الأدبية ووجهت وجهة خاصة مضادة للعروبة والإسلام، وحمل لواء هذه الدعوة غسان تويني ولويس الحاج ويوسف الخال.

وكانت انتماءات عناصر الواجهة الشعوبية متعددة، منها ما هو ماركسي أو اشتراكي أو بعثي أو قومي سوري أو مُوَالٍ لمذاهب المادية التاريخية أو الوجودية أو الليبرالية أو الفكر الهليني أو الغنوصي، وكلها تحتشد على قاعدة الفكر البشري الوافد بصورة تمكنه من العمل ضد الفكر الإسلامي الأصيل وتشويهه وتحقيره.

(1) انظر السابق، ص ٧ – ٩

مؤسسة الاستشراق

إن مهمة هذه الواجهة الشعوبية هو الحلول مكان مؤسسة الاستشراق والتبشير التي تراجع دورها شكليًّا مع انحسار عصر الغزو الاستعماري رسميًّا.

وكان دورها في مجال التفسير للأدب العربي الحديث يتجه نحو تطبيق النظريات المادية والماركسية ونظريات علم النفس الفرويدي والمفاهيم الوجودية والمعطيات الأسطورية في تفسير الحياة الإنسانية، بوصف الإنسان في مفهومها حيوانًا باحثًا عن الطعام والجنس وليس كيانًا له ذاتية خاصة، وهو ما يبعد تلقائيًّا التفسير الإسلامي وتصوراته بالتفاعل مع النصوص الأدبية.

وقد صور قدري قلعجي معاناة الأدب العربي الحديث تحت هيمنة الواجهة الشعوبية فوصف الأدب العربي المعاصر بأنه «أدب قلق يتحدث عن هويته، وهو في أغلب الأحيان لا يبحث عنها في الجذور العربية بل في التيارات والمذاهب الأجنبية، أنصار هذه التيارات قد سيطروا على مجمل الحياة الفكرية في العالم العربي وباتوا يؤلفون خطرًا على المفاهيم الخلقية والروحية، بل إن هذه المفاهيم غدت موضع تشنيع وسخرية، فالنقاد اليساريون الذين بوأتهم بعض الأنظمة مكان الصدارة وأغدقت عليهم الدول الأجنبية المساعدات هم المسيطرون اليوم على معظم الصحف الأدبية في البلاد العربية، وهم الذين يوجهون الأدب العربي وفق مخططاتهم وأهدافهم، وهم يمارسون إرهابًا فكريًّا تكاد لا تستطيع مقاومته العناصر السليمة.

المقاومة الإسلامية

والسؤال هو كيف يمكن وضع فكر إسلامي مضاد قوي يمكن عن طريقه وقف تيار المبادئ الشيوعية والهدامة في ظل هذه الأوضاع العالمية المتماوجة بما يكفل تحقيق الأهداف السامية التي يسعى إليها الإسلام»[1].

(1) انظر: السابق، ص 154 – 157

لقد توسعت الشعوبية التغريبية في مرحلة سيطرة النفوذ الأجنبي الغربي الذي ساد العالم الإسلامي منذ احتلال أكثر عواصم الإسلام وكيفت هذه العواصم تبعيتها للغرب، وازدهرت الإقليميات رغبة في تمزيق وحدة الفكر الإسلامي الجامع، ثم لم تلبث أن سممت مفهوم العلاقة بين العروبة بطرح مفهوم القوميات الوافد.

حاولت حركة اليقظة الإسلامية أن تكشف فساد المفاهيم الوافدة المطروحة في أفق الفكر الإسلامي، وكان المتوقع أن تبدأ مرحلة إسلامية من جديد مع رحيل الاحتلال الغربي العسكري والسياسي، وأن يلتمس المسلمون في الإسلام منهج حياة ونظام مجتمع، ولكن حركة التغريب الشعوبية كانت قادرة على دفع العالم الإسلامي إلى مرحلة جديدة من الاحتواء والسيطرة الفكرية والثقافية والاجتماعية التي تكونت جذورها قبل ما سمّي بالاستقلال، واستطاع التيار الماركسي عقب الحرب العالمية الثانية أن يتوسع ويمتد ويشكل مع التيار الغربي محاولة خطيرة تهدف إلى محو الشخصية الإسلامية، والقضاء على الذاتية التي شكلها الإسلام بقيمه ومفاهيمه.

ومن هنا كان على حركة اليقظة الإسلامية أن تحشد قواها وتدعم قدراتها للكشف عن هذه الزيوف ودحض هذه الشبهات ودحض تلك الشبهات والقضاء على هذه السموم[1].

الخطر الكبير

شهدت العقود الثلاثة الأخيرة خطرًا كبيرًا بالنسبة للثقافة الإسلامية والفكر الإسلامي، وظهرت وثائق تكشف عن دور المخابرات الأجنبية وخاصة الأميركية في تجنيد أنواع بعينها من الفنون والآداب، وكتاب وأدباء وفنانين حول العالم، وفي مقدمته الوطن العربي، وكان كتاب «من يدفع للزمار؟» الذي كتبته موظفة

(1) نفسه، ص ٢٢٨

المخابرات الأميركية أديث ستوندرز صاعقًا للأوساط الفكرية في العالم لأنه كشف عن المجلات الأدبية والثقافية التي كان يتم الإنفاق عليها في العواصم العربية، والأدباء الذين كان يتم تجنيدهم لخدمة التغريب وتشويه الإسلام.

كما أخذت الحكومات القمعية في العالم العربي تدخل بثقلها في احتواء الأدباء والكتاب والفنانين للعمل لحسابها، وقد تفاخر وزير ثقافة مصري أسبق بأن المثقفين قد دخلوا حظيرة وزارته، وكان هذا التصريح حاسمًا في تبني الحكومات المستبدة لمواجهة الفكر الإسلامي والثقافة الإسلامية.

وقد كانت مثل هذه الأمَارات دليلًا حيًّا ومؤكِّدًا لما ذهب إليه أنور الجند ي، وكشفه مبكرًا، قبل أكثر من نصف قرن. فقد هيمن الشعوبيون مع تعدد تياراتهم على حركة الفكر والأدب بامتداد العالم العربي، بعد أن سيطروا على وسائط النشر والتعبير بمعرفة الحكومات وأجهزتها القمعية، وتم حصار الفكر الإسلامي والثقافة الإسلامية حصارًا مشددًا، وتم حرمان الأغلبية الإسلامية من حقها في التعبير عن هويتها وأدبها، وفرض عليها نمط غريب من الثقافة في ظل غياب تام للحرية والحوار الجاد بين أطراف المجتمع الثقافي الراهن.

***